مجاناً مع



هدية العدد ٢٠٩، ١٣ ابريل ٢٠٠٤

٢٧

كل الأسماء

الجزء الأول

جوزيه ساراماغو

ترجمة: صالح علماني

مجانا مع جريدة القاهرة

القاهرة



تصميم الغلاف : **محمد الغول**

م . جرافيك : **محمد شرف**

■

جريدة اسبوعية ثقافية عامة

تصدر كل ثلاثاء عن وزارة الثقافة

الإدارة والتحرير :

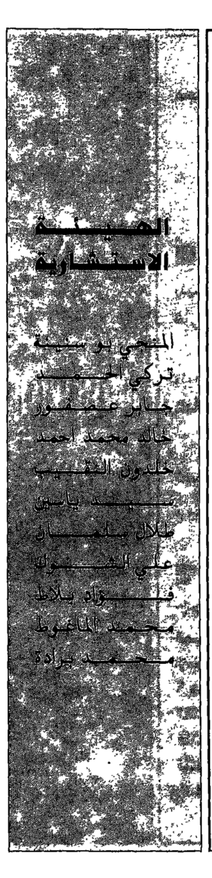
٩ ش حسن صبرى . الزمالك

القاهرة . جمهورية مصر العربية

هاتف : ٧٣٧٣٠٤١

فاكس : ٧٣٧٣٠١٨

E-mail: alkahera@idsc.net.eg



سلسلة شعبية تعيد إصدارها

دار المدى للثقافة والنشر

رئيس مجلس الادارة والتحرير

فخري كريم

الاشراف الفني

محمد سعيد الصكار

سورية - دمشق ص . ب : ٨٢٧٢ أو ٧٣٦٦
تلفون : ٢٣٢٢٢٧٥ - ٢٣٢٢٢٧٦ فاكس : ٢٣٢٢٢٨٩
www.almadahouse.com E-mail:al-madahouse@net.sy

بيروت- الحمراء- شارع ليون- بناية منصور- الطابق الأول
تلفاكس : ٧٥٢٦١٦-٧٥٢٦١٧
E-mail:al-madahouse@idm.net.lb

بغداد- أبو نواس- محلة ١٠٢- زقاق ١٣-بناء ١٤١
مؤسسة المدى للإعلام والثقافة والفنون - جانب فندق السفير
E-mail:almada112@yahoo.com



٢٧

جوزيه ساراماغو

كل الأسماء

الجزء الأول

ترجمة
صالح علماني

تقديم
د. حامد أبو أحمد

طبعة خاصة
توزع مجاناً مع جريدة (القاهرة)

دار المدى للثقافة والنشر
٢٠٠٣

الطبعة الأولى
٢٠٠١

المقدمة

خوسيه ساراماجو ورواية «كل الأسماء»

د. حامد أبو أحمد

على الرغم من كل ما يمكن أن يقال عن جائزة نوبل فى الآداب ، فإنها الجائزة العالمية الوحيدة التى تضع فى كثير من الأحيان خطا فاصلا وقويا بين شهرة محدودة للكاتب قبل الحصول عليها ، وشهرة عالمية طاغية بعد الحصول عليها . وأقصد بصفة «المحدودة» شهرته فى وطنه أو بين المتحدثين بلغته . وهذه حالة انطبقت على كثيرين ممن فازوا بجائزة نوبل ، أذكر منهم سونيكا النيجيرى ، وكاميلو خوسيه ثيلا الأسبانى ، ونجيب محفوظ المصرى العربى . وتحضرنى فى هذا الصدد واقعة كنت بالمصادفة شاهدا عليها ؛ فقد حدث أن أجريت حديثا طويلا مع نجيب محفوظ قبل عام تقريبا من فوزه بـ«نوبل» ، وترجمته إلى الأسبانية للنشر فى مجلة يديرها صديقان أحدهما أسبانى والآخر كولومبى ، وانتظرت نشر الحوار فلم ينشر حتى يئست من نشره وصرفت النظر عنه ، وإذا بى أفاجأ فى اليوم التالى مباشرة لحصول نجيب محفوظ على جائزة نوبل بنشره فى أكبر جريدة أسبانية ، وهى جريدة « الباييس » ، وكان هو الحوار الوحيد الموجود فى ذلك الوقت بالمصادفة فى أوروبا

فنقلتـه عن «البابيس» كبـريات الصحف الأوروبيـة . وهكذا تحـول نجيب محفوظ في يوم وليلة إلى كاتب عالمى تترجم أعماله بسـرعة فائقة إلى كل اللغات ، وتبحث عنه الصحافة ووكالات الأنباء لدرجة أنه كان يبحث عن فُرجة يطل منها على الراحة وهدوء البال . ليس معنى ذلك أن جائزة نوبل هى التى جعلت من محفوظ كاتبا كبيرا ، لكنها بدون أدنى شك حولته إلى كاتب عالمى يبحث عنه القراء وعشـاق الأدب فى كل مكان من هذه المعمـورة . ولا شك أن هذه أيضا هى حالة البـرتغـالى خـوسيـه ساراماجو . فهـو كاتب كبيـر ومعـروف فى أدب اللغة البـرتغالية (فى البـرتغال والبـرازيل) ، وعـرف فى السنوات الأخيـرة فى أسبـانيـا ، لكن شهـرته ظلت على نطاق محدود حتى حدث ذلك الانفجار الرهيب فى أكتوبر من عام (١٩٩٨) فتحـول سـاراماجـو إلى كـاتب عـالمى واسع الشهرة والانتشار ، وبدأ الكثيرون مثلىَ من القراء والمثقفين والمهتمين بالأدب يبحثون عن كتبه بعد أن لم يكن لديهم أدنى معلومات عنه .

وعادة ما يصاب الأديب بحالة جيشان وتوتر وثورة فى المشاعر والانفعالات ، لكنه يحاول جاهدا السيطرة عليها بإعلانه أنه لن يغير من عاداته اليومية كما فعل نجيب محفوظ ، أو أنه ثابت فى مواعيده المحددة سلفا ، وأنه لا ينبغى على الإنسان أن يفقـد رباطة جأشـه ، بل يجب أن يكون خالدا . . وهذا ما قاله كاميلو خوسيه ثيلا . أما خوسيه ساراماجو الذى سمع بالفوز وهو موجود فى فرانكفـورت لحضور المعرض الدولى للكتاب فـقـد قـال : «لقـد وجـدت أنـى مضطـر لارتداء درع واق ، وإلا لبكيت من التأثر والانفعال» ، كما قال أيضا : «أحس بمسئولية كبيرة لأنى أول برتغالى يحصل عليها» . فمن هو خوسيه ساراماجو أولا ؟ . . وما التراث الأدبى الذى يمثله ؟

■ tUL ^EtU}

ولد خوسيه ساراماجو منذ تسعة وسبعين عاما . وقد كتب الشعر والمسرح والمقالات الصحفية والقصة منذ شبابه الباكر ، ولكن بدايته

الحقيقية جاءت عام ١٩٧٧ عندما أصدر روايته «مدخل إلى الرسم والكتابة» Manual de Pintura y ca ligra fia ولذلك يعد من الكُتاب الذين مارسوا الكتابة فى سن متأخرة من حياتهم . وهو فى ذلك يشبه الكاتب الأسبانى الشهير ميجيل دى سيرفانتيس صاحب رواية «دون كيخوته» ، كما أن له أشباها كثيرين فى الآداب العالمية بما فى ذلك الأدب العربى . ولم يخصص ساراماجو وقته بصفة نهائية للأدب إلا فى منتصف الثمانينيات عندما تجاوز عمره الستين عاما . وفى تلك الحقبة ظهرت رواياته «مذكرات الدير» (١٩٨٢) و«السنة التى مات فيها ريكاردو ريس» (١٩٨٤) و«حوض من الحجر» (١٩٨٦) ، ثم كانت رواية «تاريخ حصار لشبونة» (١٩٩٠) بمثابة الختام لهذه الفترة التى قدم الكاتب خلالها ما يمكن أن نسميه المراجعة النقدية أو النظر النقدى إلى التاريخ ، ولذلك يعد ساراماجو من الكُتاب الذين أولوا اهتماما خاصا للجانب التاريخى للإنسان . ومع دخول عقد التسعينيات بدأ ساراماجو مرحلة جديدة فى أعماله أطلق عليها النقاد اسم «السلسلة المجازية ciceo algorico وكان لها دور كبير فى منحه شهرة أعرض ، ولفت الأنظار إليه وإلى نزعة التمرد التى اتسمت بها أعماله . وقد بدأت هذه السلسلة بروايته التى أثارت انتقادات واسعة ضده من أماكن كثيرة بما فى ذلك الكنيسة فى الفاتيكان ، وهى رواية «الإنجيل فى نظر يسوع المسيح» (١٩٩١) ، تلتها رواية «مقال عن العمى» (١٩٩٥) . ثم نشر عملين آخرين هما : «دفتر لانثاروتى - يوميات» و«كل الأسماء» (١٩٩٧) وهى رواية عن عالم السجلات والأرشيفات .

ومعروف أن ساراماجو يعيش فى مدينة لانثاروتى Lanzarote بجزر الكنارى التابعة لـ«أسبانيا» منذ عام ١٩٩٢ إلى الآن ، وذلك بسبب روايته المذكورة عن الإنجيل ، والتى أمرت السلطات فى بلاده بتحريمها ، وعندما تقدم الكاتب بها عام ١٩٩٢ إلى «الجائزة الأوروبية

للأدب» ووصلت إلى الترشيح النهائى المكوّن من ثلاثة أعمال فقط ، وقفت وزارة الثقافة فى البرتغال ضد هذا الترشيح بحجة أن الرواية فيها عدوان على المشاعر الدينية البرتغالية ، وعندئذ استشار ساراماجو امرأته الأسبانية بيلار دل ريو وقررا ترك البرتغال بصفة نهائية والإقامة فى أسبانيا .

وقصة زواج ساراماجو من بيلار دل ريو تنطوى على نوع من الطرافة ومن ثم يحسن أن نلم بها هنا إلماما سريعا : فحتى عام ١٩٨٦ لم يكن هذا الكاتب البرتغالى معروفا فى أسبانيا - كما ذكر هو نفسه فى حوار معه - وإن كان قد ترجمت له روايتان هما «السنة التى مات فيها ريكاردو ريس» ثم «مذكرات فى الدير» . وحدث أن كانت امرأة أسبانية شابة تتصفح الكتب فى إحدى دور البيع ، فعثرت على رواية «مذكرات فى الدير» ، فاشترتها وقرأتها وأعجبت بها ، وعادت إلى الدار تسأل : هل لهذا المؤلف كتب أخرى هنا فأعطوها الرواية الأخرى . ومرت الأيام وإذا بها تتصل بالمؤلف وتقول له : أنا صحفية من إشبيلية، أعجبتنى كثيرا كتبك ، وأفكر فى السفر إلى لشبونة (عاصمة البرتغال) وأريد أن أتحدث معك فليتك تتكرم وتمنحنى دقيقة من وقتك . وبالطبع تحولت الدقيقة إلى زواج وإقامة دائمة مع الشيخ البرتغالى .

وقد اشتهر ساراماجو من بين الكُتاب بأمرين يصر عليهما إصرار شديدا هما : أنه ملحد شديد الإلحاد لدرجة أنه عندما سئل : هل يمكن أن يتوب عن إلحاده قبيل وفاته قال إنه لن يكون ضعيفا عند احتضاره ولن يتحول حينذاك إلى الإيمان مثلما فعل آخرون من كبار الكتاب والفنانين - ولو فرض وحدث ذلك فلن يكون ذلك الشخص هو ، بل شخصا آخر غيره . ومن أقواله الإلحادية : «الله هو صمت الكون ، والإنسان هو الصيحة التى تعطى لهذا الصمت معنى» . الأمر الثانى أنه مؤمن بالشيوعية إيمانا مطلقا ، ومازال يعتبر نفسه كاتبا ملتزما حتى هذه اللحظة ، وذلك لأنه يرى أن الاشتراكية هى قبل أى شىء حركة من

حركات الروح . وهو مقتنع اقتناعا تاما بأن الرأسمالية الحالية غير قادرة على حل مشاكل البؤس والعزلة فى العالم ، كما أن الاشتراكية لم تستنفد بعد كل إمكاناتها من أجل التحرير .

ولا شك أن منح جائزة نوبل فى الآداب لهذا الكاتب الشيوعى العنيد - كما وصفه الفاتيكان - له دلالات كثيرة ،من بينها أن أوروبا حاليا تبحث عما يسمونه بالطريق الثالث ، أى الطريق الوسط بين الرأسمالية والاشتراكية بعد أن أدت نزعة الليبرالية الجديدة ، التى طبقت خلال العقدين الأخيرين إلى مشاكل اجتماعية خطيرة ، إذ ازدادت الهوة اتساعا بين عدد قليل من الناس (طبقة الأغنياء) يملكون كل شىء ، والغالبية العظمى من البشر الذين يحصلون على غذائهم اليومى بشق الأنفس ، وبعضهم يموتون جوعا . وقد قالت الأكاديمية السويدية فى قرار منح الجائزة لـ« ساراماجو » : « إنه بأمثولاته القائمة على عناصر ثلاثة هى الخيال والشفقة والسخرية يضع أيدينا دائما على الواقع المتجه للهروب» . كما قدمت الأكاديمية كالعادة تحليلا موجزا لأعمال الكاتب قائلة إن فنه الروائى المنجز بعناية وتعمق لا شك فيهما ، يمنحه مكانة ذات مستوى عال فى منظومة الأدب العالمى . وترى الأكاديمية « أن أعماله تؤسس لتقليد يمكن أن يُنظر إليه ،على نحو ما فى السياق الحالى ، بأنه راديكالى . إنها أعمال قدمت وكأنها سلسلة من المشروعات التى يمكن أن تتناقض أحيانا فيما بينها ، ولكن ثمة عنصرا مشتركا يجمع بينها هو أنها تمثل محاولات للاقتراب من الواقع » . وقد أشارت الأكاديمية إلى أن أهم أعمال هذا الكاتب البرتغالى ، والتى أدت إلى رفع قيمته الأدبية بصورة ملحوظة هى : « مذكرات الدير » و« تاريخ حصار لشبونة » و« الإنجيل فى نظر يسوع المسيح » وهى تعود ، على التوالى ، إلى سنوات ١٩٨٢ و١٩٨٩ و١٩٩١ كما أسلفنا .

وقد علم من الدوائر الأكاديمية فى العاصمة السويدية أن خوسيه ساراماجو وصل إلى مرحلة الاقتراع النهائى للجائزة فى عام مضى وهو

١٩٩٧ . وفى العام التالى (١٩٩٨) كان هناك كاتب برتغالى آخر يمثل منافسة قوية له هو أنطونيو لوبو أنتونيس Antonio lobo Antunes ومن ثم ظهر رأى يطالب بمنح الجائزة للاثنين مناصفة ، وهذا حل كان قد استخدم من قبل ، ولكن توقف استخدامه منذ حوالى عشرين عاما لأن أعضاء الأكاديمية رأوا أنه يؤدى إلى التقليل من قيمة الفائز بالجائزة . أما أعمال ساراماجو التى كانت مترجمة إلى السويدية قبل حصوله على جائزة «نوبل» فقد بلغت أربعة أعمال فقط .

فيما يتعلق بالتراث الأدبى الذى يحمله خوسيه ساراماجو نجد أن هذا التراث يتشعب إلى شعبتين إحداهما فى البرتغال ، والأخرى فى البرازيل . ففى البرتغال يمتد التراث الأدبى منذ الشعر الغنائى الجليقى - البرتغالى فى العصر الوسيط (ومنطقة جليقية Galicia موجودة الآن شمال غرب أسبانيا) ، مرورا بالأسماء البارزة مثل لويس دى كاموينس وخيل بيثينتى ، ثم أنتيرو دى كينتال وكاستيلو بلانكو وإيكا دى كيروس ، حتى نصل فى العصر الحديث إلى الرائد الكبير فرناندو بيسوا (Fernando Pessoa) . وهناك أسماء أخرى ظهرت بعد ذلك مثل ميجيل تورجا ، وڤرخيليو فيريرا ، وفرناندو نامورا ، وخوسيه كاردوسو بيريس ، وأنطونيو لوبوا أنتونيس وكلهم من معاصرى ساراماجو . وهناك أيضا الشاعر إيوخينيو أندرادى ، إلى جانب أسماء أخرى كثيرة تدل على النهضة المعاصرة للأدب فى البرتغال ، والتى لم يكن يدرى بها أحد خارج أوروبا ، على الأقل فى عالمنا العربى . وأذكر أن السفارة البرتغالية فى القاهرة ، وفى بعض البلدان العربية الأخرى حاولت فتح أقسام للغة البرتغالية فى الجامعات ، خلال العقدين الأخيرين ، بعد أن رأى البرتغاليون الانتشار الكبير للغة الأسبانية فى الجامعات العربية ولكنهم كانوا يقابلون دائما باللامبالاة وعدم الاهتمام ، على الرغم من لجوئهم إلى تقديم المنح للدارسين والطلاب لرؤية الأوضاع عن كثب . وها هى جائزة «نوبل» التى منحت للمرة الأولى لأدب اللغة البرتغالية تفتح

أمامهم آفاقا جديدة . ومن المؤكد أنه سوف يحدث خلال السنوات القادمة احتفاء كبير باللغة البرتغالية وآدابها . ولهذا كان هناك استقبال حافل لخبر الفوز بالجائزة فى البرتغال بدءا من رئيس الجمهورية إلى رئيس الوزراء ، ووزارة الثقافة التى كانت - كما رأينا من قبل - سببا فى ترك ساراماجو لـ« البرتغال » ، ورؤساء الأحزاب المختلفة والكتاب وغيرهم . والكلمات التى تقال فى مثل هذه المناسبات معروفة ، ولهذا سوف أقتصر هنا على كلمة زعيم الحزب الاشتراكى البرتغالى مانويل أليجرى Manuel Aeagre لدلالتها على خلود الأدب والفكر والثقافة، إذ قال : « إن الأدب البرتغالى يستحق جائزة نوبل ، وقد فاز بها ساراماجو لأنه كاتب كبير . لا شك أنى فى غاية السعادة فاليوم يوم عظيم بالنسبة لـ« البرتغال » . فهذه هى الأشياء التى توضع فى الحُسبان ، وهى التى تظل فى الواقع خالدة » .

ومن الأشياء التى تميز بها فوز ساراماجو بالجائزة أنه كان هناك فى البرتغال شبه إجماع بين الكتاب على استحقاقه لها ، ولم يشذ عن ذلك ، فيما قرأت ، إلا صوت نسائى واحد هى الكاتبة ماريا تيريسا أورتا التى قالت : «أعتقد أن لدينا كاتبات أفضل من ساراماجو مثل أجوستينا بيسا - لويس ، أو صوفيا دى ميللو برينير ، ولكنهم كما هى العادة دائما ،ينسون النساء » . كذلك كان هناك ترحيب حار من خارج البرتغال ،حيث عبّر كُتاب مثل : كارلوس فوينتيس وماريو بينديتى وجورج أمادو عن فرحتهم بهذا الفوز ، مشيرين إلى استحقاق خوسيه ساراماجو له . ولكنى - فيما قرأت أيضا - اطلعت على رأيين مخالفين أحدهما للكاتب البولندى الحاصل على « نوبل » ، كذلك سيسلاو -Czes law ميلوزيس Milosiz الذى قال بكثير من التدقيق إنه لا يتحمل كتابة ساراماجو : « إنها كتابة حسب الموضة ، مليئة بالمزاح ، لكنه مزاح مسطح . إننى لا أطيقها » . أيضا قام الفاتيكان - كما أسلفت - بشجب هذا الفوز ، وقد وصف متحدث باسمه هذا الكاتب البرتغالى بأنه شيوعى

عنيد ، واتهم الأكاديمية السويدية بأنها منحت ساراماجو اعترافا أيديولوجيا موجها . وقال الفاتيكان إن رواية «الإنجيل فى نظر يسوع المسيح» التى أثارت كثيرا من الجدل عام ١٩٩٢ ، يلاحظ فيها رؤية الكاتب المعادية للدين بشكل جوهرى» .

نأتى إلى التراث الأدبى فى البرازيل فنجده قد اكتسب أهمية عالمية فى السنوات الأخيرة ، بسبب انتشار أعمال جورج أمادو ، ولكن هناك أسماء أخرى كثيرة مثل إقليدس داكونها ، وماتشادو دى أسيس ، وكارلوس دروموند دى أندرادى ، وهارولدو دى كامبوس ، وجيمارايس روسا ، وجاو كابرال دى ميلو نيتو وسواهم . وبهذا يكون منح جائزة «نوبل» لـ«خوسيه ساراماجو» بمثابة كشف للغطاء الكثيف الذى كان يحجب هذا الأدب العالمى عن أنظار العالم .

■ v b ˙ t*U

ذكرت من قبل أن بدايته الحقيقية كانت عام ١٩٧٧ بروايته «مدخل إلى الرسم والكتابة» . وكانت له قبل ذلك أعمال فى الشعر والرواية والمسرح ، حيث قدمت على خشبة المسرح بعض أعماله المسرحية ، كما كان له كتاب فى أدب الرحلات عنوانه «رحلة إلى البرتغال» . ولكن يبدو أن هذه الأعمال الأولى لم تكن من الوهج ، بحيث تثير انتباه الناس إليه. وعندما ظهرت رواية «مدخل إلى الرسم والكتابة» ، لم يحس بها أحد وقتها ، ولم يلتفت إليها النقاد ، مع أنها كانت تمثل البذرة الحقيقية لكل روايات ساراماجو التى ظهرت بعد ذلك . وعنها يقول الأستاذ لويس دى سوسا ريبيلو من المعهد الملكى فى لندن «وهى الكلمة المكتوبة على غلاف الطبعة الإسبانية الأولى لعام ١٩٨٩ ، دار نشر seix Barral s.a» إنها عمل لا نظير له فى جنس أدب السيرة الذاتية البرتغالى وهى تقدم لنا ، فى مجملها ، غراسا لأفكار خوسيه ساراماجو وميثاقا للإبحار فى عالمه الروائى . وفى هذه الرواية

تنصهر كتابات تراث أدبى ثرى ومعقد مع خبرة الزمن المعيش على مستوى اليومى وصروف الأيام والليالى «أو التاريخ» ، وهذا هو جوهر الفن عند هذا الكاتب .

وقد عرف ساراماجو بأنه يستلهم أعماله الروائية من مبادئ أخلاقية تدين المجتمع المعاصر ، وأن كتابته النقدية اللاذعة تتوخى الإيجاز وتصنع بإحكام شديد ودقة بالغة ، أما رواية «المدخل» ، المذكورة فإنها تتضمن أو تشتمل على أفكاره الشعرية والأخلاقية الرئيسية التى سوف يطورها فيما بعد بشكل موسع ومنظم فى أعماله المختلفة ، التى على الرغم من اختلافها فى الظاهر فإنها تقدم رؤية كونية مشتركة. والأخلاق التى تقوم عليها أعمال ساراماجو هى أخلاق اليسار الملتزم ذى الجذور الماركسية ومن هذا الجذر الأخلاقى يصدر أحد الإشعاعات المهمة فى عمل ساراماجو المتمثل فى الطابع الكورالى الجماعى ، لرواياته التى قل أن تنحصر فى دائرة فردية صرفة ، وقد رأى النقاد فى إسبانيا والبرتغال أن ساراماجو يعد آخر الكتاب الملتزمين وهو ليس التزاما بالمفهوم الصحفى المزيف ولكنه الالتزام تجاه التاريخ وتجاه كل هؤلاء الذين يعانون من وطأته وهو أيضا التزام فى المقام الأول تجاه الأدب .

والرواية التالية هى رواية «مرتفع عن الأرض» ، alzado del sue-lo وقد صدرت عام ١٩٧٩ وهى ذات مضمون اجتماعى خالص ، إذ تحكى قصة أسرة ريفية منذ بدايات القرن حتى الثورة التى قامت فى السبعينيات لكن الرواية التى لفتت إليه الأنظار بقوة هى رواية «مذكرات الدير» «١٩٨٢» وهى رواية توجه نقدا سياسيا واجتماعيا تجاه الخلف وبتحديد أكثر تجاه الهذيان القاسى والإظلامى والجاهل لفترة الباروك BARROCO البرتغالية وهى فترة تشبه إلى حد كبير محاكم التفتيش الإسبانية وقد تلتها رواية أخرى كان لها أيضا أصداء عالمية وهى رواية «السنة» ، التى مات فيها ريكاردو ريس «١٩٨٤» ، التى تعد بمثابة تكريم لأعمال الروائى البرتغالى الرائد فرناندو بيسوا ، ولأحد

أتباعه الذى هو ريكاردو ريس نفسه وهى فى الوقت ذاته تبدو وكأنها رسالة تاريخية عن مدينة لشبونة فى عهد الديكتاتور سالازار مع منظر فى الخلفية عن الحرب الأهلية الإسبانية التى وقعت خلال السنوات من ١٩٣٦ إلى ١٩٣٩م .

وأسلوب الرواية يتراوح بين النثر المكثف والتحليق الشعرى الرفيع ، حيث يتأمل الكاتب ببراعة مرتديا قناع أحد الشعراء وإحدى المدن ، حول معنى عصر كامل : إنها تأمل نافذ لمشهد العالم وقد تركز فى شخصية ريكاردو ريس الشاعر ذى الأصول الريفية مثل المؤلف الذى يتحدث عن الإيقاع القديم الذى يصدر عن رجلين حافيتين .

وفى رواية «حوض من الحجر» ، LA BALSA DE PIEDRA الصادرة عام ١٩٨٦ نلاحظ أن خوسيه ساراماجو يؤكد على توجهه الأيبيرى أى الانتساب تاريخا وروحا ووعيا إلى شبه الجزيرة الأيبيرية التى تشمل إسبانيا والبرتغال ذلك فى مواجهة النزعة الأوروبية الموجودة لدى كثيرين من أبناء هذين البلدين . وهذه الثنائية المتنازعة فى غالب الأحيان موجودة فى ثقافة شبه الجزيرة الأيبيرية منذ أن دخلها العرب وأقاموا فيها لمدة ثمانية قرون وكان البرتغال آنذاك جزءا من الوجود العربى فى الأندلس «انظر فى ذلك الفصل الأول من كتاب» «أثر الثقافة العربية فى الأدب الإسبانى» ، وهو تحت عنوان «القول فى نسبة إسبانيا إلى العالم الغربى» .

خاصة فى الجزء الجنوبى الغربى منها الذى مازال يسمى حتى الآن باسم «الغرب ALGARBE» وكما ذكرت آنفا فإن هذه المجموعة من الروايات التى تتناول التاريخ من منظور نقدى ، التى صدرت خلال الثمانينيات قد ترجمت هذه الرواية إلى اللغة العربية ، ونشرتها دار الهلال بالقاهرة ختمت برواية «حصار لشبونة» ، «١٩٩٠» التى تبدو وكأنها تعديل لشعرية القص وفقا للمسارات الصوفية للتاريخ .

فيما يتعلق بالأعمال الصادرة فى التسعينيات التى عرفت باسم

«السلسلة المجازية» ، نجدها تبدأ برواية «الإنجيل فى نظر يسوع المسيح» ، ١٩٩١ وهى رواية استوجبت لعنة الكنيسة والدوائر المحافظة سواء داخل البرتغال أم خارجها وقد سبق أن قلت إنها تستهدف فضح النزعة الشمولية المسيحية وقد تلتها عام ١٩٩٣ رواية لم يكن لها أصداء قوية هى «In nomine Dei» ثم رواية «مقال حول العمى» ، عام ١٩٩٥ «التى شرعت أخبار الأدب» ، ابتداء من ٢٢ نوفمبر ١٩٩٨ فى نشر ترجمة كاملة لها إلى اللغة العربية تحت عنوان «العمى» ، بقلم أيمن عبدالهادى ، وهذه الرواية قال عنها الكاتب الإسبانى مانويل باثكيث مونتلبان فى مقال بجريدة «الباييس» ، فى ٩ أكتوبر ١٩٩٨ إنها تدخل عمل ساراماجو الحالى فى منطقة بحث عن خطاب تتداخل فيه الحياة والتاريخ والموت لإقامة رصانة أوقناعة استعراضية وكأن الكاتب يمنح نفسه وقتا بلا حدود للعرض الأدبى ، وذلك بصورة تتعارض مع الحدود البيولوجية والتاريخية . ويمكن القول كذلك إن ساراماجو يبدو وكأنما قد نأى عن الأمل العلمانى ، وعن التاريخ ، وعن التفاؤل التاريخى ، لكنه مازال يقاوم فى محاولة لعدم الاستسلام أمام النزعة الحتمية البيولوجية .

انتهى كلام مونتلبان وهذه الرواية تذكرنى بعمل مسرحى مهم للكاتب الإسبانى المعروف على نطاق واسع فى العالم العربى ، وهو أنطونيو بويرو باييخو ، وهذا العمل عنوانه «فرقة سان أوفيديو الموسيقية» ، وهى فرقة من العميان ولكنهم يقاومون من أجل التغلب على العنصر الحتمى البيولوجى فى هذه الآفة التى يبدو أنها تصيب أعدادا كبيرة من الناس فى شبه الجزيرة الأيبيرية ، وكنا نلاحظ ذلك أثناء إقامتنا فى مدريد ، إذ كنا نقابل الكثيرين منهم وهم يقومون بتوزيع أوراق اليانصيب فى منطقة وسط المدينة وبالطبع فإنى لم اطلع على نشرة إحصائية عن هذه الظاهرة تجعل كلامى يأخذ صفة العلمية ومن ثم فإنى أعتبرها مجرد ملاحظة انطباعية لكن ورودها على أية حال فى أعمال

أدبية متميزة يجعل منها ظاهرة جديرة بالتأمل . ولاشك أن نقاد بويرو بابييخو قد أوسعوها بحثا ، وربما فعل ذلك بعض من قاموا بتحليل أو دراسة رواية ساراماجو التى معنا لكن هذا الموضوع لا يدخل ضمن دائرة اهتمامنا في هذه الدراسة .

ونأتى إلى الرواية التى أصدرها ساراماجو عام ١٩٧٧ وهى « كل الأسماء » ، todos los nombres وسوف يكون مدخلى إليها من خلال حوار طويل عن الشهرة أجرى مع الكاتب قبيل حصوله على جائزة نوبل لينشر ضمن كتاب يضم حوارات مع آخرين تحت عنوان « وطأة الشهرة » ، وهو يشبه الكتاب المهم الذى أصدره فؤاد دوارة منذ سنوات طويلة بعنوان « عشرة أدباء يتحدثون » ، وكان من الكتب المهمة التى دخلنا عن طريقها إلى عالم الأدب فى أواخر الستينيات أو أوائل السبعينيات على ما أذكر . وقد جاء الحديث عن الشهرة لأن هذه الرواية مليئة بالتأملات حول هذا الموضوع .

ذلك أن الشخصية الرئيسية فيها - أو كما يقول ساراماجو بطل القصة ، وإن لم يمتلك أى شيء من صفات البطولة ، ولكننا نطلق عليه هذه الكلمة لمجرد أنه يتحمل ثقل أو أهمية الحكاية - نقول هذه الشخصية الرئيسية هى شخصية كاتب سجلات فقير ، موظف فى السجل المدنى وهو فى أوقات فراغه يخصص وقته لتجميع أخبار الآخرين وصورهم من الصحف والمجلات . . .ولما كانت مجموعته لا تستهدف نشاطا محددا أو مهنة معينة فإنه يتساوى بالنسبة له أن يكون هؤلاء الآخرون ممثلين أو رياضيين بل إن مجموعته تضم أحيانا بعض الكتاب . ويقول ساراماجو إن هذا التقلب فى شخصية البطل لم يأت مصادفة ، كما قد يظن ولكنه أى المؤلف قرر أن تكون لدى بطل قصته هذه العادة الصغيرة - ولعله وصل إلى هذا القرار نتيجة التفكير فى موضوع الشهرة وما تنطوى عليه من نسبية واضحة ذلك أن الشهرة ليست شيئا إيجابيا فى كل الأحيان ، وليست إيجابية فى ذاتها بل يمكن أن يكون المرء

مشهورا لأسباب سلبية . فما هى الشهرة ؟ هكذا يتساءل ساراماجو ، ثم يجيب : «الشهرة لا تزيد عن هذا ، بمعنى أن يكون المرء معروفاً . وهناك مستوى نكون كلنا فيه معروفين على هذا القدر أو ذاك ، حتى وإن اقتصر ذلك على الشارع الذى نعيش فيه .بعد ذلك يمكن أن يصير المرء معروفاً على نطاق أوسع ، فى قريته ، فى بلده ، فى عدة بلدان ، فى قارته أو فى العالم أجمع ، ولكن على أية حال يظل هناك دائماً عدد كبير من الناس لا يكون المشهور عندهم مشهوراً .ففى إسبانيا يدور كلام كثير حول المشهورين ، عن حياتهم ، وما يفعلون ، وما لا يفعلون ، وهؤلاء يغذون الصحافة بالكثير من الأخبار ،خاصة الصحافة التى تسمى «صحافة القلب» ، ولكن ما يجب أن يكون واضحاً لدينا تماماً هو أن هناك ملايين الأشخاص لا يدرون من نحن» . ويشير ساراماجو أيضاً إلى أن الشهرة ليست فى ذاتها غروراً أو زهواً ، ولكن إذا سعد المرء بها لا تكون أكثر من مجرد غرور . ومن أقواله فى ذلك : «إذا اعتقدت أن الشهرة خالدة وأنها سوف تستمر إلى الأبد ،فإنك بذلك تخدع نفسك» .

نعود إلى رواية «كل الأسماء» فنجد بطلها الموظف المذكور يتعامل مع كل الأسماء ، ومع ذلك لا يظهر فى الرواية إلا اسمه الخاص السيد جوزيه . ولكن قضية الأسماء تتصدر الواجهة ليتأمل الكاتب حولها انطلاقاً من فكرة أننا نعيش الآن فى عالم تبحث فيه الناس عن أسمائها فى الصحف وفى المجلات أى أنه عالم من الخطوط السوداء . كما أننا نعيش فى عالم من السجلات والأرشيفات أو الأصوات المسجلة وكأنما يريد ساراماجو أن يقول إن حياتنا مسجلة ، أى أنها مجرد سجل أو أرشيف أو صوت ، ولا يكاد يكون لها معنى بمنأى عن هذه الأشياء . وإذا كان دون جوزيه يمثل البطل المحورى فى الرواية ، فإن كل الشخصيات الأخرى تدور فى فلكه ، بمن فى ذلك مديره فى العمل ونائب المدير وسواهما ، والشخصيات التى يبحث عنها سواء كانت من المشاهير

أم من العامة الذين لا يذكرهم أحد ، ولكنه ، أى دون جوزيه ، بعد أن جمع قائمة بأسماء المشاهير تصل إلى مائة شخصية قرر أن يقوم بحثه كله ، على امتداد الرواية ، عن شخصية غير معروفة ، ومدون اسمها فى سجل المحفوظات . وقد قام بترتيب أسماء المشهورين ووضع بطاقاتهم كلها فى جانب ، أما البطاقة الواحدة للشخصية المجهولة فقد وضعها فى جانب آخر . لكن أهم ما فى الموضوع هو أن المائة مساوون للواحد ، وأن الواحد يساويه مائة . ونقرأ فى الرواية الفقرة التالية : «لو أن أحداً دخل إلى البيت فى تلك اللحظة ، وسأله فجأة : أتظن فعلاً أن الواحد الذى هو أنت أيضاً يساوى ما يساويه مائة ، أى أن قيمة المائة الذين فى خزانتك ، كى لا نذهب بعيداً ، هى مثل قيمتك أنت ، فسوف يرد دون شك : سيدى العزيز ، أنا مجرد كاتب بسيط فى الخمسين لم يرفع إلى مرتبة مأمور ، ولو كنت أظن أنى أساوى ما يساويه واحد فقط من أولئك الذين أحتفظ بهم ، أو أى واحد من هؤلاء الخمسة الأقل شهرة ، لما بدأت بجمع هذه المجموعة» .

والحق أن الرواية مليئة بمثل هذه التأملات ، والرواية عند ساراماجو هى نوع من التأمل والتفلسف حول الحياة والموت ، وأحوال الناس ، وظروف عيشهم وغير ذلك من نواحى الفعل الإنسانى .فأرشيف المحفوظات الذى يضم أسماء الناس وملفاتهم من الأحياء والموتى يبدو وكأنه مركز الكون ، والسيد جوزيه موظف الأرشيف تتحول معظم حركاته وأفعاله إلى هدف للتأمل سواء من جانبه أو من جانب الآخرين الذين يعاينون حركته ويحاورونه بمن فيهم المؤلف نفسه الذى لا نستطيع أن نحدد متى يبدأ دوره ومتى ينتهى . وهذا فى الحقيقة يدل على تعقد البناء الروائى الحالى وتشابكه بصورة لم يعد يصلح معها التناول النقدى القديم . إن مجرد التفكير فى وقوع دون جوزيه على السلم يثير التأمل التالى :

«لم يكن يحلم بأنه يمكن حدوث شىء أكثر خطورة من مجرد

وقوعه عن السلم . ويمكن لعاقبة السقوط أن تضع حداً لحياته . وهو ما ستكون له دون ريب أهمية من الوجهة الإحصائية والشخصية ، ولكننا نتساءل ، ما الذى يعنيه هذا ، إذا كانت الحياة بيولوجيا هى نفسها ، أى أن الكائن نفسه ، الخلايا نفسها ، الملامح نفسها ، القامة نفسها ، الطريقة الظاهرية نفسها فى النظر والرؤية والتجدد ، فهذه الحياة تحولت ، دون أن يهتم الإحصاء بالتبدل ، لتكون حياة أخرى ، وتحول هذا الشخص ليكون شخصاً آخر» .

إن دون جوزيه فى بحثه عن المرأة المجهولة «الشخص الوحيد المجهول فى مقابلة مائة مشهورين» وعن مكان سكنها ، وعن ظروف حياتها ، يصبح مثل من يضعنا فى متاهة هى متاهة الحياة والنفس والظروف المحيطة ، خاصة إذا جاء كل هذا فى إطار نوع من السرد يتداخل فيه تيار الوعى ، مع الانتقالات الزمانية والمكانية ، مع تضفير الحوار بحيث تبدو الرواية كلها قطعة سردية واحدة . فالسرد يبدو متصلاً ، بينما هو فى الحقيقة يمكن أن يكون فى كثير من الأحيان حوارات بين دون جوزيه وشخص أو أشخاص آخرين ، لا يهمنا من هم ، لأن المهم هو كيف ينعكس وجودهم وحواراتهم على شخص دون جوزيه وتفكيره وصلته بعالمه الخاص المتميز وبالآخرين . إن مجرد رغبة دون جوزيه فى الخروج من العمل قبل ساعة من موعد انتهاء الدوام تتحول إلى مسألة تحتاج إلى تفكير وتأمل وحوار مع النفس ومع الآخرين . وقد بدأ بعرض رغبته على مأمور قسمه ، حيث تتوقف الطريقة التى سوف ينقل بها الطلب إلى نائب المدير المختص على طيب أو سوء استعداده الروحى ، ونائب المدير بدوره سوف يحذف أو يضيف بعض الكلمات ، وسيشدد على هذا المقطع الصوتى أو ذاك ، وربما يحذف أحد المقاطع بحيث يمكنه ، إلى حد ما أن يؤثر فى القرار النهائى . ومع ذلك كانت الشكوك حول هذه النقطة أكبر بكثير من اليقين ، لأن الأسباب التى تدفع المدير إلى منح موافقته على الإذن أو حجبها عنه لا يعرفها أحد سواه ،

وليس هناك من مـذكـرة أو سـجل ، خـلال سنوات طويلة من عـمل المحفوظات ، لبلاغ وحيد مكتوب أو شفاهى ، يتضمن القواعد المناسبة . هكذا ينطلق دون جوزيه فى تأملاته حول هذه المسألة البسيطة ويتأهب لما سوف يجرى بعد ذلك من أفعال وردود فعل وحوارات . ولا شك أن قراءة هذا العمل المهم لخوسيه ساراماجو من جانب كتّاب الرواية فى مصر والعالم العربى يمكن أن تمنحهم أبعاداً هائلة للتطور الخلاق الذى حدث فى الفن الروائى العالمى على يد هذا الكاتب المتميز وأمثاله .

■ [illegible]

وتتوقف أخيراً عند بعض الآراء والأفكار ذات الدلالة القوية على منطلقات الفن الروائى عند ساراماجو وعالمه الإبداعى ، خاصة أن أمثال هذا الكاتب تكون لهم فى العادة تأملات مهمة يفيد منها دارسوهم بصفة خاصة ، والمتخصصون فى نقد الرواية بعامة . إضافة إلى أن جائزة نوبل تتيح للكاتب مساحات واسعة لعرض أفكاره فى حوارات تتجاوز لغة الكاتب لتؤثر فى كل لغات العالم . وبالطبع لا تتيح لنا المساحة التوقف عند الكثير مما قال . من هذه الآراء اعتقاده بأن التشاؤم ينطوى على حكمة . ولهذا أكد فى حوار معه على أن المتشائمين هم الذين يبذلون الجهد الأكبر فى بناء المجتمع . وتدافع زوجته الإسبانية عن هذه النزعة عنده قائلة إن علاقة الحب التى ربطتها به هى أجمل شىء وقع لها فى حياتها ، ولو أنه كان شديد التشاؤم كما يقال عنه ما استطاعت أن تعيش معه . كل ما فى الأمر - والكلام للسيدة بيلار دل ريو - هو أن خوسيه ساراماجو كاتب ملتزم مع عصره ومع صيحات الإحباط لدى المطحونين والمهمشين ، ولهذا ظل على ولائه للشيوعية .

وقد سبق أن ذكرت أنه شيوعى عنيد لأنه يؤمن بأن الاشتراكية هى قبل أى شىء آخر حركة من حركات الروح - والآن أضيف أنه بعد الإعلان عن فوزه بنوبل ، وكان فى فرانكفورت ، وجه إليه سؤال : هل

من الممكن الآن أن يظل المرء شيوعياً ؟فقال بعد أن عرج على ما حدث فيَ العالم خلال السنوات الأخيرة : «أن تكون شيوعياً أو أن تكون اشتراكياً هو قبل كل شيء وأهم من كل شيء حالة من حالات الروح . . فهل كان يلتسين ذات يوم شيوعياً ؟ وهل كان ستالين ذات يوم أيضاً شيوعياً ؟ يقول ماركس وإنجلز : إذا كان الإنسان قد شكلته الظروف ، فإنه من اللازم أن تتشكل الظروف نفسها بطريقة إنسانية . وهنا يكمن كل شيء ، فحالة الروح الشيوعية وحدها هى التى يمكن أن تضع نصب أعيننا هذه الكلمات فى كل الظروف بوصفها قاعدة للفكر وللتصرف» . وجدير بالذكر هنا أن ساراماجو عندما سافر إلى فرانكفورت لحضور المعرض الدولى للكتاب كان سفره بهدف أن يتحدث مع مؤلفين آخرين عن كيف يمكن أن يظل المرء شيوعياً فى الوقت الحالى .

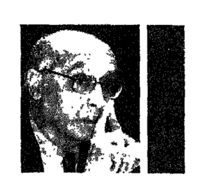
ومن آراء ساراماجو التى تنطوى على نوع من الغرابة ، وإنْ كانت تنطلق فى الأساس من الصدق مع النفس مما يبعدها عن التبجح الممجوج ، أن التواضع شيء زائف وفيه نقص فى الشجاعة ، تلك الشجاعة التى امتلكها الشاعر الكاتب الفيلسوف الإسبانى ميجيل دى أونا مونو ذات يوم عندما تسلم جائزة من يد الملك ألفونصو الثالث عشر «جد الملك خوان كارلوس الحالى» وأطراه الملك ببعض كلمات الاستحقاق فرد عليه أونامونو قائلاً : «أشكرك على هذه الجائزة التى أستحقها كثيراً» . ويعلق ساراماجو على هذه الواقعة قائلاً :ينبغى أن نتأمل حول هذه القاعدة المشتركة لدى الكتّاب ، لأنهم عادة عندما يقدم لهم شيء مما يستحقون يردون قائلين إننا لا نستحقه .فمن أين أتوا بهذا التواضع ؟! ومع ذلك فإنهم لو قدموا لك فى الغد جائزة وذكروك بالخير وأمنت على ما يقولون ، فإنهم يقتلونك ويمزقونك ، ويلصقون بك كل سخيمة ، ويقولون : «مغرور» ، وما ذلك إلا لأن المجتمع قائم على النفاق ، ومن ثم فإنك تتظاهر بتواضع لا تحس به فى داخلك .

ولساراماجو أقوال فى السعادة ، وفى النصر والهزيمة وفى كثير مما يحيط بالإنسان من وقائع وأحداث ورؤى وتأملات . وسوف أقتصر فى السطور التالية على كلمات له ينبه بها دائماً إلى حالة من حالات الصراع البشرى ، يقول : «لا يجب أن ننسى أنه ليست هناك هزائم نهائية ولا انتصارات نهائية ، لأن انتصارات اليوم يمكن أن تتحول إلى هزائم غداً ، والعكس صحيح ،فالمهزومون اليوم يمكن أن يكونوا هم المنتصرين غداً » . ولا شك أن هذه الكلمات تنطلق من رؤية للوجود يؤمن بها الكاتب إيماناً قوياً هى «نسبية كل شىء فى هذا العالم» ، وفى ذلك يقول : « كل شىء مؤقت ، وكل شىء نسبى ، ولا شىء يدوم وما يقال فى هذا المكان أو ذاك على الرغم من صحته ، فإنه لا يدوم» .

وهكذا تكون جائزة نوبل فى الآداب ١٩٩٨ قد عرفت العالم بفن روائى له خصوصيته الشديدة وملامحه القوية ، ثم إنها طرحت على الناس أعمال كاتب مثير للجدل ، ومؤمن إيماناً قوياً بأفكاره التى تتعارض مع الفكر السائد والتوجهات المهيمنة ، لكنها فى نفس الوقت تتناغم مع الرغبة الحادة فى البحث عن طريق ثالث يجعل للعدالة الاجتماعية نافذة يطل منها الملايين من الفقراء والمطحونين والمهمشين فى كل أنحاء العالم .

الى بيلار

أنت تعـــرفُ الاسم الذي أطلقـــوه عليك،
ولكنك لا تـعــــــرف الاسم الـذي هو لـك.
كتاب التجليات



هناك فوق إطار الباب لوحة معدنية طويلة وضيقة ، مطلية بالمينا . وعلى الخلفية البيضاء ، توجد حروف سوداء تقول المحفوظات العامة للسجل المدني . طبقة المينا مجرحة ومشققة في بعض الأماكن . الباب قديم ، آخر طبقة من الطلاء البني مقشرة ، وعروق الخشب ، المكشوفة ، تُذكّر بجلد مخطط . هناك خمس نوافذ في الواجهة . وما إن يجتاز المرء العتبة حتى يشم رائحة الورق القديم . صحيح أنه لا يمر يوم إلا وتدخل إلى المحفوظات أوراق جديدة ، لأشخاص من جنس الذكور أو جنس الإناث ، ممن يولدون هناك خارجاً ، ولكن الرائحة لا تتبدل أبداً ، وذلك في المقام الأول ، لأن قدر كل ورق جديد ، منذ خروجه من المصنع ، هو البدء بالتحول إلى ورق عتيق ، وفي المقام الثاني ، لأنه لا يمر يوم على الورق القديم في العادة ، وعلى الورق الجديد في أحيان كثيرة أيضاً ، إلا وتكتب عليه أسباب وفيات ومكانها وتاريخها ، ويسهم كل ورق بروائحه الخاصة ، وهي ليست روائح مؤذية على الدوام للأغشية المخاطية ، مثلما تثبت بعض التضوعات العطرة التي تنفذ بخفة أحياناً إلى جو المحفوظات العامة ويمكن للأنوف مرهفة الحساسية أن تتعرف عليها كعطور ممزوجة مناصفة من الورد والأقحوان .

بعد اجتياز الباب ، يظهر حاجز عالٍ مزجج ذو مصراعين يؤدي إلى القاعة المستطيلة الفسيحة حيث يعمل الموظفون ، منفصلين عن الجمهور بحاجز كونتوار طويل يمتد ما بين الجدارين الجانبيين ، باستثناء جزء منه يشكله ذلك الباب المتحرك في الاتجاهين والذي يسمح بالمرور إلى الداخل . ويراعي توزيع الأماكن في القاعة ، أقدمية التراتبية الوظيفية بالطبع ، وكونه متناسقاً ،كما هو متوقع ، من هذه الناحية ، فإنه متناسق كذلك من الناحية الهندسية ، وهو ما يشكّل دليلاً على عدم وجود أي تعارض عضال ما بين الجمالية والسلطة . فصف الطاولات الأول الموازي للكونتوار يشغله ثمانية كتبة يتولون التعامل مع جمهور المراجعين . وراءهم ، هناك صف من أربع طاولات ، مركزية بالنسبة إلى محور التناظر الذي يبدأ من الباب ويضيع أثره هناك في العمق ، عند تخوم المبنى المظلمة . ويشغل هذه الطاولات المأمورون . ويليهم نائبا المدير ، وأخيراً ، هناك المدير معزولاً ووحيداً ،مثلما يجب أن يكون ، وهم يسمونه الرئيس في التعامل اليومي .

توزيع المهمات بين طاقم الموظفين يتم وفق قاعدة بسيطة ، تتلخص في أنه على عناصر كل مرتبة واجب تنفيذ كل ما يمكنهم تنفيذه من العمل ، بحيث لا ينتقل إلا جزء يسير منه إلى المرتبة التالية . هذا يعني أنه لا مناص للكتبة من أن يعملوا دون راحة منذ الصباح حتى الليل ، بينما يعمل المأمورون بين حين وآخر ، ونائبا المدير في أوقات متباعدة جداً ، أما المدير فلا يكاد يعمل على الإطلاق . الحركة الدؤوبة المتواصلة للثمانية الذين في المقدمة ، الذين ما أن يجلسوا حتى ينهضوا ، ويبقوا دائمي الركض من الطاولة إلى منضدة الكونتوار ، ومن منضدة الكونتوار إلى خزائن البطاقات ، ومن خزائن البطاقات إلى الأرشيف ، مكررين دون راحة هذه المشاهد والتوليفات وغيرها أمام لامبالاة رؤسائهم ، سواء الرؤساء المباشرون أو البعيدون ، هي عامل لا بد منه لفهم كيف كان

ممكناً وسهلاً بصورة مؤسفة اقتراف التجاوزات ، والمخالفات ، وممارسات التزوير التي تشكل المادة المركزية لهذه القصة .

ولكي لا نفقد طرف الخيط في قضيةٍ بهذه الأهمية ،فإنه من المناسب أن نبدأ ونحن نعرف أين توجد وكيف تعمل ملفات الأرشيف وخزائن البطاقات . إنها مقسمة ، بصورة بنيوية وقاعدية ، أو وفقاً لقانون الطبيعة ، إذا أردنا استخدام كلمات بسيطة ، في منطقتين كبيرتين هما ، منطقة ملفات وبطاقات الأموات ، ومنطقة ملفات وبطاقات الأحياء . فأوراق أولئك الذين لم يعودوا أحياء توجد مرتبة إلى حد ما في القسم الخلفي من المبنى ، والذي يتوجب بين فترة وأخرى هدم جداره وإعادة بنائه من جديد على بُعد بضعة أمتار إلى الوراء ، بسبب التزايد المستمر في أعداد الموتى . وسيكون من السهل الاستنتاج ، بأن مصاعب ترتيب أمر الأحياء ، وإن كانت مقلقة ، آخذين في الاعتبار أن هناك أناساً يولدون على الدوام ، هي أقل إلحاحاً بكثير ، وقد جرى حلّها حتى الآن ، بطريقة مرضية عقلانياً ،سواء بأسلوب الضغط الآلي الأفقي للملفات الفردية المنضدة على رفوف الخزائن ، هذا بالنسبة للملفات ، أو باستخدام بطاقات رقيقة أو رقيقة جداً ، بالنسبة لأرشيف البطاقات . وعلى الرغم من مشكلة الجدار الخلفي غير المريحة ، والتي أُشير إليها سابقاً ،فإن روح الارتجال لدى أولئك المهندسين المعماريين الذين صمموا بناء المحفوظات العامة للسجل المدني تستحق كل الإطراء والمديح ، لأنهم طرحوا ، في مواجهة الآراء المحافظة لبعض العقليات الحريصة المتمسكة بالماضي ، ودافعوا عن إقامة هياكل الخزائن الخمس العملاقة ذات الرفوف التي ترتفع حتى السقف وراء ظهور الموظفين ، وإرجاع حافة الخزانة المركزية إلى الوراء ، حيث تكاد أن تلامس مقعد المدير ، وتقريب حافة الخزانتين الجانبيتين من منضدة الكونتوار ، لتبقى الاثنتان ، وهذا مجرد قول ، في وسط الطريق . هذه الهياكل المبنية ، التي يعتبرها جميع المراقبين هائلة

وخارقة ، تمتد داخل المبنى إلى ما وراء ما يمكن للعين بلوغه ، لأن الظلمة أيضاً ، بدءاً من ارتفاع معين ، تأخذ بالانتشار ، ذلك أن المصابيح تكاد لا تُضاء إلا عندما تكون هناك حاجة إلى تفحص ملف ما . هياكل الخزائن ذات الرفوف تلك هي التي تتحمل ثِقل الأحياء . أما الأموات ، فأوراقهم محشورة هناك عميقاً ، في ظروف أسوأ مما يسمح به الاحترام ، ولهذا لا بد من بذل جهد للعثور عليها عندما يأتي قريب أو كاتب بالعدل أو وكيل قضائي إلى المحفوظات العامة طالباً شهادات أو نُسخاً من وثائق أزمنة أخرى . وسبب فوضى هذا القسم من الأرشيف واستفحالها يكمن في واقع أن المتوفين القدماء هم الأقرب إلى المنطقة المدعوة فعالة ، والتي تأتي مباشرة بعد منطقة الأحياء ، مشكّلة ، حسب التعريف الذكي لرئيس المحفوظات العامة ، ثِقلاً ميتاً مرتين ، ذلك أنه نادراً ما يهتم أحد بهم ، ويقتصر الأمر في أوقات متباعدة على مجيء أحد غريبي الأطوار للبحث عن شذرات تاريخية تافهة لا تكشف شيئاً . وقد تبين أنه لا حلّ لهذا الوضع إلا بحسم أمر الفصل يوماً بين الموتى والأحياء ، ببناء إدارة محفوظات جديدة في مكان آخر تخصص للموتى وحدهم ، واتضح ذلك عندما خطر لأحد نائبي المدير ، في ساعة نحس ، أن يقترح تنظيم أرشيف الموتى على عكس ما هو عليه ، وذلك بوضع الموتى القدماء في العمق ، وقبلهم من ماتوا في تاريخ أقرب ، في ترتيب يُسهّل ، حسب كلماته البيروقراطية ، الوصول إلى الموتى المعاصرين الذين هم ، كما هو معروف ، أصحاب الوصايا ، ومانحو التركات ، وهم بالتالي موضع منازعات وردود طالما أجسادهم ما تزال دافئة . وافق المدير على الفكرة ساخراً ، شريطة أن يكون صاحب الاقتراح نفسه هو من يدفع إلى العمق ، يوماً بعد يوم ، الكتلة الهائلة من ملفات الموتى المنسيين الفردية ، بهدف أن يحل الموتى المحدثون في الفراغ المستعاد . ولرغبته في تجاهل هذا الخاطر الكارثي وغير القابل للتحقيق ، ولكي يلهي نفسه كذلك عن الإهانة المُذلة ،

لم يجد نائب المدير وسيلة أفضل من الطلب إلى الكتبة بأن يحولوا إليه عملاً ما ،خادشاً بذلك السلام التاريخي للتسلسل الوظيفي ، بالاتجاه العلوي والسفلي على السواء . أدت هذه الحادثة إلى تنامي التقصير، وازدهار الإهمال ، وتفاقم التردد ، إلى حد اختفى معه يوماً في متاهات سراديب أرشيف الموتى أحد الباحثين ، جاء بعد شهور من ذلك الاقتراح السخيف إلى المحفوظات العامة ليقوم بتحريات ميراثية كُلِّف بها . وقد عُثر عليه بما يشبه المعجزة بعد أسبوع ، جائعاً ،عطشاً ، مستنفداً ، هاذياً، وباقياً على قيد الحياة بفضل الوسيلة اليائسة في ابتلاع كميات كبيرة من الورق القديم لم يكن بحاجة إلى مضغها لأنها كانت تتحلل من تلقاء نفسها في فمه ، دون أن تبقى طويلاً في معدته ودون أن تغذيه . ولأن رئيس المحفوظات العامة كان قد طلب أن يُحضروا إلى مكتبه ملف ذلك المؤرخ المتهور لنقله إلى خانة الموتى ، فقد أضطر إلى غض النظر عن الأضرار التي أحدثها ،ونُسبت رسمياً إلى الفئران ، ثم وقع بعد ذلك أمراً داخلياً يقضي ،تحت طائلة الغرامة وتعليق الراتب ، بوجوب استخدام خيط آريان[1] لكل من يدخل أرشيف الموتى .

ليس من العدل على أي حال تناسي مصاعب الأحياء . فما هو أكثر من صحيح ومعروف أن الموت ، سواء لعدم كفاءة أصيلة فيه ، أو لسوء نية مبيتة عبر التجربة ، لا يختار ضحاياه بما يتفق مع مدة حياتهم التي عاشوها ، وهو سلوك ، نقول ذلك بين قوسين ، انتهى به المطاف ، إذا ما صدقنا كلام المراجع الفلسفية والدينية المتعددة التي تعرضت للموضوع ، إلى أن يبعث في الكائن البشري ، بصورة انعكاسية ، وعبر سبل مختلفة ومتناقضة أحياناً ، تأثيراً غريباً من التصعيد الذهني للخوف الطبيعي من الموت . ولكن ، بالرجوع إلى ما يهمنا ، فإنه لا يمكن اتهام الموت أبداً بأنه ترك عجوزاً منسياً بصورة غير محدودة في الدنيا ، لمجرد أن يصير في

(١) آريان Ariane أو Ariadna: هي في الأساطير الإغريقية ابنة مينوس ملك جزيرة كريت. قدمت إلي ثيسيوس الخيط الذي مكنه من معرفة طريق الخروج من المتاهة بعد أن قتل المينوتور

كل يوم أكثر شيخوخة ، دون أي استحقاق معروف أو سبب ظاهر للعيان . فمهما طال عمر المسنين ، فإن ساعتهم ستأتي دون ريب . ولا يمر يوم إلا ويكون على الكتبة أن يُخرجوا ملفات من رفوف الأحياء لينقلوها إلى المستودع الذي في العمق ، ولا يمر يوم إلا ويدفعون نحو أقصى الخزائن أولئك المتبقين على قيد الحياة ، وإن يكن ذلك أحياناً ، بسبب نزوة تهكمية من نزوات القدر الغامض ، حتى اليوم التالي فقط . ووفقاً لما يسمى النظام الطبيعي للأشياء ، فإن الوصول إلى أقصى الخزانة يعني أن الحظ قد تعب ، وأنه لم يعد هناك أمام المرء مزيد من الطريق ليذرعه. فالوصول إلى نهاية الخزانة ذات الرفوف هو ، بكل المعاني ، بداية السقوط . ومع ذلك ، قد يحدث أحياناً ، دون أن يدري أحد السبب ، أن تبقى ملفات في الحافة القصوى للفراغ ، غير متأثرة بهذا الدوار الأخير ، لسنوات وسنوات أطول مما يقره العرف على أنه الأمد الطبيعي لحياة بشرية . في أول الأمر تثير تلك الملفات ، في الموظفين ، الفضول المهني ، ولكنها سرعان ما تبدأ بإيقاظ ضيقهم ونفاد صبرهم ، كما لو أن العناد الوقح لمديدي العمر أولئك يختزل فرص الحياة لديهم ، يأكلها ، يلتهمها . ولا يكون هؤلاء المؤمنون بالخرافات مخطئين تماماً ، إذا ما أخذنا في الاعتبار حالات الموظفين من كل الفئات العديدة الذين توجب سحب ملفاتهم من أرشيف الأحياء بصورة مبكرة ، بينما الأوراق الخارجية للمكابرين في البقاء على قيد الحياة آخذة بالاصفرار أكثر فأكثر ، إلى أن تتحول إلى لطخات قاتمة وغير جمالية في أقصى طرف الرفوف ، مسيئة إلى نظرات الجمهور . وعندئذ يقول رئيس المحفوظات العامة لأحد الكتبة ، استبدل أغلفة تلك الملفات يا دون جوزيه .



إضافة إلى اسمه الأول "جوزيه" ، لدى السيد جوزيه كنيتان اثنتان أيضاً ،وهما من أكثر الكنى شيوعاً ،وتخلوان من تلك الشذوذات الاسمية ، إحداهما كنية أبيه ، والأخرى كنية أمه ، وفقاً للعرف السائد ، وقد انتقلت إليه الكنيتان بصورة شرعية ،مثلما يمكننا أن نتأكد في سجل الولادات الموجود في المحفوظات العامة إذا ما كان جوهر الحالة يبرر الاهتمام بذلك ، وإذا ما كانت حصيلة التقصي تعوض الجهد المبذول لتأكيد ما هو معروف . ومع ذلك ، ولسبب غير معروف ، ما لم يكن مبعث ذلك ببساطة هو تهاون شخصي ، عندما يُسأل دون جوزيه عن اسمه ، أو عندما تتطلب الظروف أن يقدم نفسه ، أنا فلان الفلاني ، فلن يفيده في شيء النطق بالاسم كاملاً ، لأن محادثيه لن يحتفظوا في ذاكرتهم إلا بالكلمة الأولى ،جوزيه ، والتي يضيفون إليها أو لا يضيفون بعد ذلك كلمة "دون" ، حسب درجة علاقة الثقة أو الرسمية ، المجاملة أو الألفة في المعاملة . وهكذا فإن كلمة "دون" ، ولنقل ذلك بصراحة ، ليست لها كل القيمة التي تبدو أنها توحي بها في البداية ، على الأقل هنا في المحفوظات العامة ، حيث واقع أن الجميع يتعاملون بهذه الطريقة ، ابتداء من المدير وحتى أحدث الكتبة عهداً في الوظيفة ، لا يكون لها المدلول نفسه في ممارسة العلاقات المرتبية الوظيفية ، بل ويمكن أن تُلاحَظ ، في

طريقة النطق بالكلمة المقتضبة ، وحسب مختلف درجات السلطة أو مزاج اللحظة ، نغمات شديدة التنوع مثلما هي نغمات التفضل ، النزق ، التهكم ، الازدراء ، التذلل ، التملق ، وهو ما يُبين إلى أي حد يمكن أن تصل الإمكانيات التعبيرية للفظة مقتضبة جداً تبدو ، للوهلة الأولى ، وكأنها تعني شيئاً واحداً فقط . بهذين المقطعين الصوتيين في "جوزيه" والمقطع الوحيد لكلمة "دون" ، عندما تسبق الاسم ، يحدث الشيء نفسه تقريباً. ففي هذه المقاطع الصوتية يمكن أن نميز ، عندما يتوجه أحدهم إلى المُسمى ، في المحفوظات أو خارجها ، نبرة الازدراء ، أو التهكم ، أو النزق ، أو التفضل . أما النغمات الأخرى ، نبرات التذلل والتملق ، النبرات المداهنة أو المرخمة ، فإنها لا ترن مطلقاً في مسمعي الموظف الكاتب دون جوزيه ، إذ ليس لهذه النغمات مدخل في التدرجات اللونية للمشاعر التي يبدونها تجاهه عادة . ولا بد من التوضيح مع ذلك ، بأن بعض هذه المشاعر هي أكثر تعقيداً من تلك التي عُدِّدت سابقاً ، وهي أولية وجلية بطريقة ما ، مكونة من قطعة واحدة . فعندما أصدر المدير ، مثلاً ، الأمر: استبدل أغلفة تلك الملفات يا دون جوزيه ، كان يمكن لأذن متيقظة ومرهفة أن تتعرف في صوته على شيء يمكن تصنيفه ، مع تجاوز التناقض الواضح في المصطلحات ، باللامبالاة السلطوية ، أجل ، سلطة واثقة من نفسها تماماً إلى حد لا تبدي معه تجاهلها للشخص الذي تتوجه إليه وحسب ، حتى بعدم النظر إليه ، وإنما تترك انطباعاً واضحاً ، منذ تلك اللحظة ، بأنها لن تتنازل بعد ذلك للتأكد من تنفيذ الأمر . من أجل الوصول إلى الرفوف العليا ، هناك في الأعلى ، عند مستوى السقف تقريباً ، يتوجب على دون جوزيه أن يستخدم سُلَّماً يدوياً طويلاً جداً ، ولأنه يعاني ، لسوء الحظ ، من ذلك الاختلال العصبي المزعج الذي ندعوه بالعامية جاذبية الهوة ، فإنه لا يجد بداً ، إذا كان لا يريد تهشيم عظامه على الأرض ، من ربط نفسه إلى درجات السلّم بحزام متين . وفي

الأسـفل ، لا يخطر لأي من زمـلائـه في المرتـبـة الوظيـفـيـة ، ناهيك عن الحديث عن الرؤسـاء ، رفع عينيه ليرى إذا مـا كان العمل يجري على ما يرام . ويُفهم من هذا أنها طريقة أخرى لتبرير عدم المبالاة .

في البـدء ، وهو بـدء يرجع إلى عـدة قـرون خلت ، كـان الموظـفـون يقـيمـون في إدارة المحفوظات العامـة . ليس في داخلها بالضبط ، وليس في اختـلاط كامل ، وإنما في مسـاكن بسيطة وبدائية مشيدة في الخارج ، على امتـداد الجدران الجانبيـة ، لها شكل صوامع صغيـرة مـهـملة راحت تتشـبث بجسـد المحفوظات الراسخ . وكـان لكل واحـد من تلك البيوت بابان ، البـاب العـادي ، المطل على الشـارع ، وباب إضـافي ، خـفي ، غيـر مرئي تقـريبـاً ، يتصل بقاعـة الأرشيف الكبرى ، وهـو أمر كـان يعتبـر في تلك الأزمنة ، وعلى امـتـداد سنوات طويلة ، مفـيـداً تمامـاً من أجل سيـر الخدمـات على أحسـن وجه ، إذ لا يضطر الموظفون إلى إضاعة الوقت في التنقل عبـر المـدينة ولا يمكن لهم التعلل بمشاكل حـركـة المرور حين يأتون متـأخريـن . إضافة إلى هذه المزايا اللوجستية ، كـان من السـهـل إرسـال التفتيش للتأكـد إذا مـا كان تغيبهم صحيحاً عندما يخطر لهم تقديم إجازة مرضيـة . وقد طرأ لسـوء الحظ تـغـيير على وجـهـات النظر البلدية حول التنظيم العـمـراني للحي الذي تقـوم فيه المحفوظات العـامـة ، أدى إلى هدم تلك البـيـوت الفريدة ، باسـتثناء واحـد منهـا ، قـررت السـلطات المختصة الحفاظ عليه كوثيقة معـمـارية لمرحلة تاريخية وذكـرى من نظام علاقات عمل ، على الرغم من انتقادات الحداثة الخفيفة ، كانت له حسناته أيضاً . وفي هذا البـيت كـان يسـكـن دون جوزيه . لم يكن ذلك مـقـصـوداً ، ولم يختـاروه ليكون المؤتمن المتبقي من زمن غابر ، وإذا كـان ذلك قـد حـصل على هذا النحو فيجب عزوه فقط إلى مـوقع المسكن ، القـائم عند زاوية لا تضـر بالتـراصف المنتظم ، ولم يكن الأمـر ينطوي بالتـالي على عقـاب أو ثواب ، وهمـا أمران لا يسـتحقهما دون جوزيه ، لم يكن هذا أو ذاك ، فقد

سُمح له بمواصلة العيش في المسكن وحسب . على كل حال ، وكإشارة إلى أن الأزمنة قد تبدّلت ولتجنب وضع يمكن أن يُفسر بسهولة على أنه امتياز ، فقد حُكم على باب الاتصال بالمحفوظات بأن يبقى مغلقاً ، أي أنهم أمروا دون جوزيه بأن يوصده بالمفتاح ونبهوه إلى أنه لم يعد بإمكانه الدخول من هناك . وهذا هو السبب الذي يفرض على دون جوزيه أن يدخل ويخرج كل يوم من البوابة الكبيرة للمحفوظات العامة ، مثلما يفعل أي شخص آخر ، حتى ولو هبت على المدينة أشد العواصف عنفاً . ولكن لا بد من القول مع ذلك ، إن روحه المنهجية تشعر بالحرية وهي تنصاع لمبدأ المساواة ، حتى ولو كان ، مثلما هي الحال الآن ، ضده ، مع أنه ، وهذا صحيح أيضاً ، كان يُفضل ألا يكون هو نفسه الشخص الوحيد الذي عليه صعود السلّم اليدوي دوماً لاستبدال مغلفات الملفات القديمة ، خصوصاً وأنه يعاني من خوف المرتفعات ، مثلما قيل من قبل . ولكن دون جوزيه يتمتع بالحياء الممتدح لأولئك الذين لا يمضون وقتهم في الشكوى من اختلالات عصبية ونفسية ، حقيقية أو مُتخيلة ، والاحتمال الأكبر هو أنه لم يُحدّث زملاءه قط عن معاناته ، ولو أن الأمر غير ذلك ، لفعل هؤلاء ما هو اكثر من النظر إليه بريبة بينما هو في أعلى السلّم، خائفاً من فقدان توازنه ، والوقوع فوق رؤوسهم ، على الرغم من حزام الأمان المضمون . وعندما يرجع دون جوزيه إلى الأرض ، وهو ما يزال نصف دائخ ومدارياً بأفضل ما يمكن آخر إمارات الدوار ، لا يدور في خلد الموظفين الآخرين ، سواء أمثاله الكتبة أو الرؤساء ، الخطر الذي جازف بالتعرض له .

والآن حان الوقت للتوضيح بأن إيصاد الباب لم يحمل إلى دون جوزيه سوى الراحة والرضى ، بالرغم من اضطراره إلى القيام بذلك الالتفاف حول البناء للدخول إلى المحفوظات العامة والعودة إلى بيته . لم يكن بالشخص الذي يتلقى زيارات زملائه في استراحة الغداء ، وإذا ما

سقط يوماً طريح الفراش ،فإنه يذهب بنفسه إلى قاعة المحفوظات ، ليقدم نفسه إلى نائب المدير المسؤول لكي لا تبقى هناك أية شبهات حول نزاهته كموظف ، وكي لا يضطروا إلى أن يرسلوا إليه الرقابة الصحية للكشف عليه في سريره . وقد تقلصت أكثر فأكثر ، مع منع استخدام الباب ، احتمالات أي تدخل مفاجئ إلى تحفظه البيتي ، إذا ما ترك مكشوفاً فوق الطاولة ، على سبيل المثال ، وبالمصادفة ، ذاك الشيء الذي يكلفه جهداً كبيراً منذ سنوات طويلة ، وهو ، للعلم ، مجموعته من الأخبار الصحفية عن شخصيات من البلاد صارت مشهورة ، سواء لأسباب طيبة أو خبيثة . أما الأجانب ، ومهما تكن أبعاد شهرتهم ، فلا يهمونه في شيء ، لأن أوراقهم تؤرشف في محفوظات أخرى مختلفة، إذا كانوا يطلقون هذا الاسم أيضاً هناك ، وهي مكتوبة بلغات لا يستطيع فك رموزها ، وتحكمهم قوانين لا يعرفها ، ولا يمكنه بلوغها حتى لو استخدم أكثر السلالم طولاً . وهؤلاء الأشخاص ، من أمثال دون جوزيه ، موجودون في كل مكان ، يشغلون الوقت الذي يعتقدون أنه فائض عن حياتهم في جمع الطوابع ، العملات ، الميداليات ، الفازات ، البطاقات البريدية ، علب الثقاب ، الكتب ، الساعات ، القمصان الرياضية ، التواقيع ، الأحجار ، الدمى الصلصالية ، علب المرطبات الفارغة ، تماثيل الملائكة المصغرة ، الصباريات ، برامج حفلات الأوبرا ، الولاعات ، رياش الكتابة ، رسوم البوم ، علب الموسيقى ، القوارير ، القسائم ، لوحات الرسم ، الجرار ، الغلايين ، المسلات الزجاجية ، بطات الخزف ، الدمى القديمة ، أقنعة الكرنفال ، ومن المحتمل أنهم يفعلون ذلك لسبب يمكن أن نطلق عليه اسم الغم الميتافيزيقي ، ربما لأنهم لا يطيقون تقبل فكرة أن الفوضى هي المتحكم الوحيد بالكون ، ولهذا يعمدون ، بقواهم الضعيفة ، ودون عون إلهي ، إلى محاولة وضع نظام ما في العالم ، ويتوصلون إلى ذلك خلال بعض الوقت ، طالما هم قادرون على حماية مقتنياتهم ، لأنه عندما يأتي

اليوم الذي تتبعثر فيه تلك المقتنيات ، وهو يوم لا بد أن يأتي على الدوام ، سواء بالموت أو باستنفاد جهود الجامع ، يعود كل شيء إلى البداية ، ويعود كل شيء إلى الفوضى .

حسن ، مع اتضاح أن نزوة دون جوزيه هذه هي من أكثر النزوات براءة ، فليس مفهوماً سبب حرصه الشديد على ألا يرتاب أحد في انه يجمع قصاصات صحف ومجلات تتضمن أخبار وصور أناس مشهورين ، دون أي سبب آخر سوى هذه الشهرة نفسها ، ذلك أنه لا فرق لديه إذا ما كانوا سياسيين أو جنرالات ، ممثلين أو معماريين ، موسيقيين أو لاعبي كرة قدم ، دراجين أو كتّاباً ،مضاربين أو راقصات ، قتلة أو مصرفيين ، محتالين أو ملكات جمال . ولم يكن يسلك هذا المسلك السري على الدوام . صحيح أنه لم يرغب قط في التحدث عن تسليته تلك إلى الزملاء القلائل الذين يثق بهم إلى حد ما ، ولكن هذا عائد إلى تحفظه الطبيعي ، وليس لاحتراس واعٍ من أن يضع نفسه في موضع سخرية . لقد ظهر اهتمامه في الدفاع بحرص شديد عن خصوصيته بعد وقت قصير من هدم البيوت التي كان يسكنها موظفو المحفوظات العامة ، أو بدقة أكبر ، بعد أن جرى تنبيهه إلى أنه لم يعد بإمكانه استخدام باب الاتصال المباشر . يمكن أن يكون الأمر مجرد توافق عارض ، مثلما هناك الكثير من المصادفات ، لأنه لا يبدو أن ثمة أي علاقة مباشرة أو قريبة بين تلك الواقعة وحاجته المفاجئة جداً إلى التكتم ، ولكن النفس البشرية تتخذ في أحيان كثيرة ، كما هو معروف ، قرارات تقول إنها لا تعرف أسبابها، ويُفترض أنها تفعل ذلك بعد أن تكون قد جابت دروب الدماغ بسرعة لا تجد القدرة بعد ذلك على التعرف عليها ناهيك عن العثور عليها. وسواء أكان الأمر هكذا أم لم يكن ، أو كان هذا هو التفسير أو أي شيء آخر ، فقد أحس دون جوزيه في ساعة متقدمة من إحدى الليالي ، وبينما هو يعمل باطمئنان في تحديث أوراق مطران في مجموعته ، بأن ذلك

المطران سيبدل له حياته . من المحتمل أن وعياً مفاجئاً أشد قلقاً من حضور المحفوظات العامة في الجانب الآخر من الجدار السميك ، وتلك الرفوف الضخمة المترعة بالأحياء والأموات ، والمصباح الصغير الشاحب المتدلي من السقف فوق طاولة المدير ، المضاء طوال النهار وطوال الليل ، والظلمات الكثيفة التي تكتنف الممرات بين الخزائن ، والظلمة السحيقة التي تخيم في أقصى القاعة ، والوحشة ، والصمت ، من المحتمل أن هذا كله ، في إحدى اللحظات ، عبر دروب الذهن المبهمة التي سبق ذكرها ، جعله يدرك أن ثمة شيئاً أساسياً ناقصاً في مجموعاته ، أجل ، إنه الأصل ، الجذر ، المنشأ ، أو بكلمات أخرى ، إنه ببساطة شهادة ميلاد الشخصيات المشهورة التي ينهمك في جمع وتوثيق أخبار حياتها العامة .فهو لا يعرف مثلاً ،ما هو اسم أبوي المطران ، ولا من هما عراباه اللذان رافقاه عند تعميده ، ولا مكان ولادته الدقيق ، في أي شارع ، في أي مبنى ، في أي طابق ، وأما بالنسبة إلى تاريخ الميلاد ، إذا كان وارداً بالمصادفة في إحدى هذه القصاصات ، فإن السجل الرسمي للمحفوظات وحده هو الذي يقدم ، بكل جلاء ، المعلومة الموثوقة ، وليس معلومة مفلتة تلتقطها الصحافة ، ولا يدري أحد مدى دقتها ، إذ يمكن أن يكون الصحفي قد أساء السماع أو النقل ، ويمكن أن يكون المصحح قد أخطأ ، ولن تكون المرة الأولى التي يحدث فيها ذلك في تاريخ الأخطاء المطبعية . والحل متوفر في متناول يده . كانت قناعة رئيس المحفوظات العامة المستندة إلى ثقل سلطته المطلقة ،تغذي يقينه بأن أي أمر يخرج من فمه يُنفذ بأقصى صرامة وبأقصى دقة ، دون المجازفة بوقوع عواقب نزوية أو مضاعفات اعتباطية من جانب المرؤوس الذي يتلقى الأمر ، هي السبب في إبقاء مفتاح باب الاتصال مع دون جوزيه . ما كان ليخطر له مطلقاً أن يستخدمه ، وما كان ليُخرجه مطلقاً من الدرج الذي أودعه فيه ، لو لم يصل إلى النتيجة بأن جهوده ككاتب سير متطوع لن تكون ذات فائدة تذكر ، موضوعياً ، دون تضمينها دليلاً موثقاً ، أو نسخة مطابقة ، لوجود من يتابع سيرتهم في الحياة ، ليس واقعياً فقط ، وإنما رسمياً كذلك .

وليتصور الآن كل من هو قادر على التصور حالة التوتر العصبي ، والاستثارة التي فتح بها دون جوزيه لأول مرة الباب المحظور ، والقشعريرة التي جعلته يتوقف عند المدخل ، كما لو أنه وضع قدمه على عتبة حجرة يُدفن فيها إله لا تأتيه مهابته ، على عكس ما هو شائع ، من الانبعاث ، وإنما من رفضه له . فالآلهة الموتى وحدهم هم الآلهة دوماً . كانت الكتل الشبحية للخزائن المترعة بالأوراق تبدو وكأنها تشق السقف غير المرئي وتعلو في السماء السوداء ، وكان الضوء الشاحب فوق طاولة المدير أشبه بنجمة نائية وخامدة . ومع أنه يعرف جيداً الأرض التي يتحرك فوقها ،فقد أدرك دون جوزيه ، عندما استعاد ما يكفي من هدوئه ، أنه بحاجة إلى مساعدة ضوء كي لا يصطدم بالأثاث ، ولكن قبل ذلك ، لكي يصل دون إضاعة وقت كثير ، إلى الوثائق الخاصة بالمطران ، البطاقة أولاً ، وبعد ذلك الملف الشخصي . كان لديه مصباح يدوي في الدُرج الذي يحتفظ فيه بالمفتاح . ذهب لإحضاره ، وعندئذ ، كما لو أن حمله الضوء قد ولّد شجاعة جديدة في روحه ، تقدم مصمماً تقريباً بين الطاولات ، حتى بلغ الكونتوار ، الذي كان يقبع تحته أرشيف بطاقات الأحياء الواسع . وعثر بسرعة على بطاقة المطران وحالفه الحظ بأن الخزانة التي يُحفظ فيها الملف المطابق للبطاقة لم يكن أعلى من مدى ارتفاع الذراع . لم يحتج للسلّم ، ولكنه فكر بتوجس كيف ستكون حياته عندما سيضطر إلى الصعود إلى المناطق العليا من الخزائن ، هناك حيث تبدأ السماء السوداء . فتح خزانة المطبوعات ، وأخرج نموذجاً من كل نوع من الاستمارات ورجع إلى البيت ، تاركاً باب الاتصال مفتوحاً . جلس بعد ذلك ، وبيده التي مازالت ترتعش ، بدأ باستنساخ المعلومات الشخصية للمطران على نسخة من الاستمارات البيضاء ، الاسم الكامل ، دون أن يُغفل أي كنية أو أي تفصيل ، تاريخ ومكان الولادة ، اسما الأبوين ، اسما العرابين ، واسم الكاهن الذي عمّده ، واسم موظف المحفوظات العامة الذي قام بتسجيله ، كل الأسماء . وعندما وصل إلى نهاية العمل الوجيز كان مستنفداً ، يداه تنضحان عرقاً ، وهو يشعر بقشعريرة في ظهره ، كان يدرك جيداً أنه اقترف خطيئة روح الفريق الوظيفي ، فليس هناك عملياً

ما يرهق الإنسان أكثر من اضطراره إلى النضال ، ليس ضد روحه بالذات ، وإنما ضد تجريد ما . فبتفحصه تلك الأوراق ارتكب مخالفة ضد الانضباط الوظيفي وأخلاقه ، وربما ضد الشرعية . ليس لأن المعلومات التي تتضمنها محظورة أو سرية ، فهي ليست كذلك ، إذ يمكن لأي شخص أن يحضر إلى المحفوظات ليطلب نسخاً أو شهادات عن وثائق المطران دون حاجة إلى توضيح أسباب طلبه أو الأهداف التي يتوخاها ، وإنما لأنه كسر سلسلة المراتبية الوظيفية وتصرف دون الأمر أو التفويض اللازم من رؤسائه . وقد خطر له في تلك اللحظة أن يتراجع ، أن يُصلح فعلته غير النظامية بتمزيق النسخ الوقحة التي استنسخها وإزالتها من الوجود ، وتسليم المفاتيح للمدير ، لا أريد تحمل المسؤولية يا سيدي إذا ما حدث وفُقد شيء من المحفوظات ، وبعد ذلك ، نسيان هذه الدقائق السامية التي عاشها للتو . ومع ذلك ، فقد تغلب عليه الرضا والفخر بأنه عرف كل شيء ، وكانت هذه هي الكلمة التي قالها ، كل شيء ، عن حياة المطران . نظر إلى الخزانة حيث يخبئ علب مجموعات القصاصات وابتسم بتلذذ حميم ، مفكراً بالعمل الذي ينتظره الآن ، بالتنويعات الليلية ، بالجمع المنظم للبطاقات والملفات ، وبالنسخ التي سيستنسخها بأفضل خط لديه ، وأحس بسعادة غامرة لم يعكر حماسه معها معرفته بأنه سيستخدم السلّم اليدوي . رجع إلى المحفوظات وأعاد وثائق المطران إلى أماكنها. بعد ذلك ، وبإحساس بالثقة بنفسه لم يعرف مثله طوال حياته ، مرّ بضوء المصباح على ما حوله ، كما لو أنه يستحوذ أخيراً على شيء كان له منذ الأزل ، ولكنه لم يستطع الاعتراف بملكيته له إلا الآن . توقف لحظة لينظر إلى منضدة الرئيس ، المحاطة بهالة الضوء الشاحب الذي يسقط من أعلى ، أجل ، هذا ما يتوجب عليه عمله ، الجلوس على ذلك المقعد ، فمنذ اليوم سيكون السيد الحقيقي لأرشيف المحفوظات ، فهو وحده القادر ، إذا ما أراد ، باضطراره إلى قضاء النهار هناك مجبراً ، أن يعيش هناك الليل أيضاً بإرادته . الشمس والقمر يدوران دون توقف حول المحفوظات العامة للسجل المدني ، العالم ومركز العالم . من أجل إعلان بداية شيء ما ، يجري الحديث دوماً عن النهار الأول ، بينما الليلة الأولى هي التي

يجب أخذها بالحسبان ، فهي شرط النهار ، فالليل سيكون أبدياً لو لم يكن هناك ليل . كان دون جوزيه جالساً على مقعد المدير ، وسيبقى هناك حتى الفجر ، منصتاً إلى الهمس الأصم لأوراق الأحياء فوق الصمت الكثيف لأوراق الأموات . عندما انطفأت أنوار المدينة وبدت النوافذ الخمس التي فوق الباب الكبير بلون الرماد القاتم ، نهض عن المقعد ودخل إلى البيت موصداً باب الاتصال وراءه . اغتسل ، حلق ذقنه ، تناول فطوره ، خبأ جانباً أوراق المطران ، ارتدى أفضل بدلة لديه ، وعندما أزفت الساعة ، خرج من الباب الآخر ، الباب المؤدي إلى الشارع ، وقام بالالتفاف حول المبنى ودخل إلى المحفوظات . لم يلحظ أي من زملائه من هو القادم ، وردوا على التحية كعادتهم قائلين ، صباح الخير يا دون جوزيه ، دون أن يدروا مع من كانوا يتكلمون .



لحسن الحظ أن الناس المشهورين ليسوا كثيرين . وحتى باستخدام المعايير الانتقائية والتمثيلية بالغة التساهل والأريحية مثلما هي معايير دون جوزيه التي رأيناها ، لن يكون من السهل ، خصوصاً حين يتعلق الأمر ببلد صغير ، الوصول إلى مئة كاملة من الشخصيات المشهورة حقاً دون السقوط في التساهل والتراخي المعروف في أنطولوجيات "أفضل مئة سوناتا حب" أو "أقوى مئة مرثية" ، التي نجد أنفسنا محقين تماماً في الارتياب بأن القصائد الأخيرة المختارة فيها لم تُورد إلا لاستكمال العدد . ولو نظرنا إلى مجموعة دون جوزيه بمجملها ، فإنها تتجاوز المئة بكثير ، ولكن العدد مئة ، سواء بالنسبة إليه أو إلى مُصنِّف مختارات المراثي أو السوناتات ، يشكل حداً ، نهاية ، nec plus ultra،[1] أو أنه يشبه قارورة ، إذا تحدثنا بالمصطلحات العامية ، سعتها لتر واحد ولا يمكن لها ، مهما حاولنا ، أن تتسع لأكثر من لتر سوائل واحد . ويمثل هذا الفهم لطبيعة الشهرة النسبية ، لن يسيء لها ، في اعتقادنا ، وصفها بالديناميكية ، خصوصاً وأن مجموعة شخصيات دون جوزيه التي تنقسم

(١) عبارة لاتينية تشير إلى حدود لم يجر تجاوزها ، وهي تُنسب إلى هرقل الذي قالها ، كما تقول الأسطورة ، عند بلوغه جبلي آبيلا (سبتة) وكالبيه (جبل طارق) ، أي أعمدة هرقل ، وظن أنهما حد العالم ونهايته ، ففصل بينهما لتتحد مياه الأطلسي بمياه البحر المتوسط.

إلى قسمين ، المئة الأوسع شهرة من جهة ، ومن جهة أخرى أولئك الذين لم يتوصلوا إلى ذلك القدر من الشهرة ، نقول إن تلك المجموعة تبقى في حركة دائمة في تلك المنطقة التي أطلقنا عليها اصطلاحياً تسمية الحدود . فالشهرة ، آه لحالنا ، هي نعمة يمكن لها أن تأتي أو تذهب ، لأنها مثل راية يمكن لها أن تدور نحو الشمال مثلما نحو الجنوب ، وبالطريقة نفسها التي يمكن بها لشخص أن ينتقل من الإهمال والنسيان إلى الشهرة دون أن يدرك السبب ، فإنه ليس من النادر بعد أن يكون قد اختال متبختراً أمام الحظوة الشعبية المتحمسة ، أن ينتهي به الأمر إلى طمس اسمه في عالم النسيان . وبتطبيق هذه الحقائق المحزنة على مجموعة دون جوزيه ، يُفهم أيضاً أن هناك حالات صعود مجيدة وحالات سقوط دراماتيكية ، فقد يخرج أحدهم من جماعة الاحتياطيين ويدخل في جماعة الفاعلين ، وقد لا يعود في القارورة متسع لأحدهم ويتوجب الإلقاء به خارجاً . إن مجموعة دون جوزيه تشبه الحياة كثيراً.

وفي عمله الدؤوب ، حتى ساعة متأخرة من الفجر أحياناً ، مع ما رافق ذلك من نتائج سلبية واضحة على مؤشرات الإنتاج التي عليه إنجازها في وقت الخدمة الطبيعية ، أنهى دون جوزيه خلال أسبوعين جمع ونقل المعلومات الأصلية من الملفات الشخصية للمئة شخص الأوسع شهرة في مجموعته . لقد مرّ في لحظات رعب لا توصف في كل مرة كان عليه فيها أن يتسلق السلّم حتى الدرجة الأخيرة لكي يصل إلى الرفوف العليا ، حيث ، كما لو أن معاناة الدوار ليست كافية ، يبدو أن كل عناكب المحفوظات العامة للسجل المدني قد قررت نسج أكثر الشباك ، التي يمكن يوماً لوجه بشري أن يلمسها ، كثافة وتعفراً واتساعاً . كان القرف ، أو الخوف بكلمة أكثر فظاظة ، يضطره إلى هز ذراعيه بجنون لكي يُزيح تلك الملامسة المقززة ، ولحسن الحظ أنه كان يربط الحزام بمتانة إلى درجات السلّم ، ولكن كانت هناك مناسبات لم يفصله فيها إلا القليل عن

السقوط ، هو والسلّم معاً ، والارتطام بالأرض ؛ مثيراً سحابة من الغبار التاريخي وتحت وابل مطر انتصاري من الأوراق . وفي واحدة من لحظات الغم تلك ، وصل إلى حد التفكير بفك نفسه وتقبل المجازفة بسقوطٍ دون حماية ، حدث ذلك عندما تصور العار الذي سيلطخ اسمه وذكراه إلى الأبد إذا ما دخل الرئيس في الصباح ووجده ، هو دون جوزيه ، ميتاً بين خزانتين ، رأسه مشجوج ودماغه ظاهر ، وهو مقيد بصورة مضحكة إلى السلّم بالحزام . وتوصل بعد ذلك إلى أن فك نفسه سينقذه من السخرية فقط ، ولكن ليس من الموت ، وهو أمر لا يستحق العناء . وفي نضاله ضد الطبيعة الرهابية التي أتى بها إلى الدنيا ، وعند نهاية المهمة تقريباً ، بالرغم من أنه كان قد عمل في الظلام تقريباً ، تمكن من إبداع وإتقان طريقة لتحديد موقع الملفات والتعامل معها أتاحت له أن يُخرج في ثوان قليلة الوثائق التي يحتاج إليها . المرة الأولى التي واتته فيها الشجاعة على عدم استخدام الحزام ، كان كما لو أن انتصاراً خالداً قد سُجل في سيرته الذاتيه المتواضعة ككاتب . لقد شعر بالإنهاك ، بالشحوب ، مع تشنجات في بواب معدته ، ولكنه كان سعيداً سعادة لا يذكر أنه أحس بها في حياته ، عندما احتل المشهور المصنف في الموقع المئة مكانه في العلبة المخصصة له ، بعد تحديده وفق كل أنظمة المحفوظات العامة . عندئذ فكر دون جوزيه بأنه سيكون من المستحسن ، بعد هذا الجهد العظيم ، نيل قسط من الراحة ، وحيث أن نهاية الأسبوع توشك أن تبدأ ، فقد قرر أن يرجئ المرحلة التالية من العمل إلى يوم الاثنين ، هذا يعني إعطاء وضع مدني نظامي للبضعة وأربعين مشهوراً احتياطياً الذين ما زالوا في الانتظار . لم يكن يحلم بأنه يمكن حدوث شيء أكثر خطورة من مجرد وقوعه عن السلم . ويمكن لعاقبة السقوط أن تضع حداً لحياته ، وهو ما ستكون له دون ريب أهمية من الوجهة الإحصائية والشخصية ، ولكننا نتساءل ، ما الذي يعنيه هذا ، إذا كانت الحياة بيولوجياً هي نفسها ، أي

أن الكائن نفسه ، الخلايا نفسها ، الملامح نفسها ، القامة نفسها ، الطريقة الظاهرية نفسها في النظر والرؤية والتجدد ، فهذه الحياة تحولت ، دون أن يهتم الإحصاء بالتبدل ، لتكون حياة أخرى ، وتحوّل هذا الشخص ليكون شخصاً آخر .

لقد تكلف مشقة كبيرة في تحمل البطء غير الطبيعي الذي تجرجر به يوما العطلة ، وبدا له ذلك السبت وذلك الأحد أبديين . شغل الوقت في اقتطاع قصاصات من الصحف والمجلات ، وفتح في بعض الأحيان باب الاتصال ليتأمل قاعة المحفوظات العامة بكل صمتها المهيب . كان يشعر بأنه يحب عمله أكثر من أي وقت مضى ،فبفضله يمكنه التوغل في حميمية الكثير من الشخصيات المشهورة ، وأن يعرف على سبيل المثال ، أشياء يبذل بعضهم كل ما هو ممكن لإخفائها ، مثل كونهم أبناء مجهولي الآباء أو الأمهات ، أو مجهولي كليهما ، مثلما هو حال أحدهم ، أو قولهم إنهم ينحدرون من حاضرة إحدى المقاطعات أو النواحي في حين أنهم ولدوا في قرية منسية ، أو في مفترق طرق لاسمه وقع رهيب ، إذا لم يكن في مكان يعبق ببساطة برائحة روث وزريبة أو ربما في مكان بلا اسم . بهذه الأفكار ، وأفكار أخرى ذات نبرة ارتيابية مشابهة ، وصل دون جوزيه إلى يوم الاثنين وقد استعاد قواه جيداً بعد الجهود المضنية التي أقدم عليها ، بالرغم من التوتر العصبي المتراكم من الصراع المتواصل بين الرغبة والخوف ، مستعداً للتصدي لمغامرات ليلية أخرى ، وعمليات تسلق جريئة أخرى .

ولكن النهار انقلب مع ذلك رأساً على عقب منذ الصباح . فنائب المدير المسؤول عن الشؤون الإدارية أبلغ المدير بأنه بدأ يلاحظ ، في الأسبوعين الأخيرين ، استهلاكاً في استمارات البطاقات ومغلفات الملفات لا يتناسب مع عدد المواليد المسجلين في المحفوظات ، بالرغم من الأخذ بعين الاعتبار متوسط الأخطاء المسموح به إدارياً في عملية التسجيل .

أراد المدير أن يعرف ما هي الإجراءات التي اتخذها نائب المدير لتقصي أسباب الخلل في الاستهلاك ، وما هي الإجراءات الأخرى التي يفكر في اتخاذها كي لا يتكرر حدوث ذلك . فأوضح نائب المدير ، برصانة ، أنه لم يتخذ أي إجراء بعد ، وأنه لا يسمح لنفسه بالتفكير في أي فكرة ، ناهيك عن القيام بأي مبادرة ، قبل أن يطرح القضية على المراجع العليا ، وهو ما كان يفعله في تلك اللحظة . فرد المدير بجفاء ، كعادته ، ها قد طرحتَ الأمر ، فتصرف الآن ، ولا أريد سماع المزيد حول هذه القضية. ذهب نائب المدير إلى طاولته ليفكر ، وبعد ساعة من ذلك حمل إلى المدير مسودة تعميم داخلي ، يتم بمقتضاه إقفال خزانة المطبوعات والاستمارات بالمفتاح ، ويبقى ذلك المفتاح بحوزته ، باعتباره الإداري المسؤول . كتب المدير : للتنفيذ ، مع الموافقة ، وأوصد نائب المدير الخزانة ، وفعل ذلك بمبالغة ظاهرة لكي ينتبه الجميع إلى هذا التحوّل ، فتنهد دون جوزيه الصعداء ، بعد ذعر الوهلة الأولى ، لأنه كان قد وجد الوقت الكافي لإنجاز الجزء الأكثر أهمية من مجموعته . وحاول أن يتذكر كم بطاقة تسجيل احتياطية ما زالت لديه في البيت ، ربما حوالي اثنتي عشرة ، وربما حوالي خمس عشرة . وهذا ليس بالأمر الخطير أيضاً. فعندما تنتهي ، سينسخ على أوراق عادية الثلاثين بطاقة التي ما زالت تنقصه ، والاختلاف لن يسيء إلا إلى الناحية الجمالية . وفكر مواسياً نفسه : ليس بالإمكان نيل كل شيء على الدوام .

لم يكن هناك أسباب للاشتباه به بأنه المتسبب المفترض في اختفاء المطبوعات أكثر من الاشتباه بأي واحد آخر من زملائه في المرتبة ، ذلك أنهم وحدهم ، الكتبة ، من يملؤون البطاقات ومغلفات الملفات ، ولكن أعصاب دون جوزيه الواهنة جعلته يخشى طوال اليوم من أن تُلاحظ الاختلاجات الخارجية لضميره المذنب وتُضبط . وبالرغم من ذلك ، خرج على ما يرام من الاستجواب الذي أُخضع له . فبتعابير وجهه ونبرة صوته

التي حاول تطويعها مع الوضع ، أعلن أنه يتوخى أشد أشكال الحرص صرامة في استخدام المطبوعات ، أولاً لأن هذه الطريقة في السلوك هي جزء من طبيعته ، ولأنه يعي قبل ذلك ، وفي كل الظروف ، أن الورق المستهلك في المحفوظات العامة يأتي من الضرائب العامة ، وكم من المرات والمرات يتحمل دافعو الضرائب التضحيات لدفعها ، وأنه هو ، باعتباره موظفاً مسؤولاً ،يتوجب عليه أن يحترم الممتلكات العامة بصرامة ويستفيد منها إلى أقصى الحدود . وقد لقيت أقواله ، سواء من حيث الشكل أو المضمون ، ارتياحاً من الرؤساء ، إلى حد أن زملاءه الآخرين الذين تم استدعاؤهم تباعاً للاستجواب ، كرروها مع بعض التعديلات الطفيفة في الأسلوب ، ولكن القناعة الضمنية والمعممة ، مع مرور الزمن ، والتي ترسخت في ذهن العاملين من خلال شخصية الرئيس المتميزة ، بأنه لا يمكن لشيء في المحفوظات ، مهما حدث ، أن يسير ضد مصالح الخدمة ، هذه القناعة هي التي حالت دون أن يتوقف أحد عند مسألة أن دون جوزيه ، منذ يومه الأول في العمل ، قبل سنوات طويلة خلت ، لم يتلفظ قط بمثل هذا القدر من الكلمات المتتالية . لو كان نائب المدير متدرباً على مناهج علم النفس التطبيقي في الاستجواب ، لقوض في أقل من زفرة خطاب دون جوزيه المخادع ، مثلما تُقوّض قلعة من ورق اللعب زلت قدم ملك الديناري فيها ، أو مثل شخص يعاني الدوار ويهزون به السلّم . ولارتيابه بأن نائب المدير المكلف بالاستجواب قد يعيد التفكير في الأمر فيما بعد ، ويساوره الشك بأن ثمة قطاً مخبأً في القضية ، قرر دون جوزيه ، تجنباً لما هو أسوأ ، أن يبقى في بيته تلك الليلة . لن يتحرك من ركنه ، لن يدخل قاعة المخطوطات حتى ولو وعدوه بالثروة التي لم يصل إليها أحد من قبل ، اكتشاف الوثيقة التي طالما جرى البحث عنها منذ أن صارت الدنيا دنيا ، أي شهادة الميلاد الرسمية دون زيادة ولا نقصان . يقال إن الحكيم هو حكيم بقدر ما يتحلى به من حذر ، ولا

بد من الاعتراف ، على الرغم من المخالفات التي راح يرتكبها مؤخراً ،أن لدى دون جوزيه ضرباً من الحكمة ، وإن تكن مبهمة وغير محددة بصورة محزنة ، إنه نوع من الحكمة غير الإرادية ، من تلك التي يبدو أنها تدخل الجسد من المجاري التنفسية ، أو لأن الشمس تضرب على الرأس ، ولهذا لا تعتبر هذه الحكمة جديرة بتصفيق خاص . فإذا كان الحذر ينصحه الآن بالانسحاب ، فإنه سيمتثل ، بحكمة ، إلى صوت الحذر . فتعليق تقصياته لأسبوع أو أسبوعين سيساعد في محو أي ملمح خوف أو جزع قد يكون متبقياً في وجهه .

بعد تناول عشائه البسيط ، مثلما تفرض عليه عادته والضرورة ، وجد دون جوزيه نفسه أمام ليلة سهر طويلة دون أن يكون لديه ما يفعله . تمكن من إلهاء نفسه خلال نصف ساعة في تصفح بعض أكثر الحيوات شهرة في مجموعته ، أضاف إليها بعض القصاصات الحديثة، ولكن تفكيره لم يكن هناك ، بل كان يشرد هائماً في عتمة قاعة المحفوظات ، مثل كلب أسود عثر على طرف أثر السرّ الأخير . بدأ يفكر في أنه ليس هناك من خطر في مجرد استخدام البطاقات الاحتياطية لديه ، وإن لم تكن أكثر من ثلاث أو أربع بطاقات ، لكي يشغل شطراً يسيرا من الليل وينام بعد ذلك مطمئناً . كان الحذر يحاول كبحه ، بشده من كميه ، ولكن الحذر ، مثلما يعرف الجميع ، أو يجب عليهم أن يعرفوا ، يكون جيداً عندما يتعلق بالحفاظ على ما لم يعد يثير الاهتمام ، فأي ضرر يمكن أن يلحقه به فتح الباب . والبحث بسرعة عن ثلاث أو أربع بطاقات ، حسن ، ولتكن خمساً ،فهو عدد معقود ، وسيترك مغلفات الملفات إلى فرصة أخرى ، وهكذا سيتجنب استخدام السلم . وأدت هذه الفكرة إلى حسمه الأمر . توغل في كهف المحفوظات الرحيب وهو يضيء الطريق بالمصباح اليدوي في يده المرتعشة ، واقترب من خزانة البطاقات . كان أكثر عصبية مما اعتقده قبلاً بينما هو يدير رأسه إلى هذه

الجهة وتلك بارتياب ، كما لو انه مُراقَب من مليارات العيون المختبئة في ظلمة الممرات ما بين الخزائن . لم يكن قد استعاد تماسكه من صدمة الصباح . فتح وأغلق أدراجاً بالسرعة التي أتاحتها له أصابعه المتوترة ، باحثاً في مختلف فهارس الحروف الأبجدية عن البطاقات التي يحتاج إليها ، مخطئاً مرة بعد أخرى ، إلى أن تمكن أخيراً من جمع بطاقات الخمسة مشهورين الأوائل من الفئة الثانية . رجع إلى البيت راكضاً وقد انتابه الفزع حقاً ، وقلبه يطفر بقوة ، مثل طفل يذهب إلى خزانة الأطعمة ليسرق قطعة حلوى ويرجع من هناك تطارده كل مسوخ الظلمات . صفق الباب في وجههم وأدار المفتاح دورتين في القفل ، ولم يكن يريد التفكير بأنه عليه العودة هذه الليلة مرة أخرى إلى المحفوظات لكي يعيد البطاقات اللعينة إلى أماكنها . ولكي يهدئ من روعه ، شرب جرعة من زجاجة الخمر التي يحتفظ بها للمناسبات ، السعيدة منها والتعيسة. وبسبب التسرع والافتقار إلى العادة ، ذلك أن المناسبات السعيدة والتعيسة نفسها كانت نادرة في حياته ، غص بالشراب ، فسعل ، ثم سعل من جديد ، وهو موشك على الاختناق ، إنه كاتب بائس يحمل في يده خمس بطاقات ، هو كان يعتقد أنها خمس ، ولشدة السعال أفلتها من يده ، ولم تكن خمساً ، بل ست بطاقات ، مبعثرة على الأرض ، مثلما يمكن لأي شخص أن يراها ويعدها ، واحدة ، اثنتان ، ثلاث ، أربع ، خمس ، ست ، لم يحدث من قبل أن كان لمفعول جرعة واحدة من الخمر مثل هذا التأثير .

عندما تمكن أخيراً من استعادة أنفاسه ، انحنى ليلتقط البطاقلت ، واحدة ، اثنتان ، ثلاث ، أربع ، خمس ، لا شك في ذلك ، ست ، وبينما هو يلتقطها على التوالي كان يقرأ الأسماء المدونة عليها ، الجميع مشهورون ، باستثناء واحد منها . مع التسرع واضطراب الأعصاب ، كانت البطاقة الدخيلة قد التصقت بالتي تسبقها ، وكان الفرق في السماكة ضئيلاً إلى

حد تكاد معه أن تكون ملاحظة ذلك غير ممكنة . من الواضح أنه مهما كانت المبالغة في العناية بالخط وتنميقه ، فإن استنساخ خمس سجلات ميلاد وحياة موجزة هو عمل يمكن إنجازه في وقت قصير . بعد نصف ساعة كان بإمكان دون جوزيه إنهاء السهرة وفتح الباب مرة أخرى . جمع البطاقات الست بفتور ونهض عن الكرسي . لم يكن يشعر بأي رغبة في الدخول إلى المحفوظات ، ولكن ليس هناك من مهرب آخر ، يجب أن تكون خزانة البطاقات كاملة وبالترتيب المعهود في الصباح التالي . لأنهم إذا ما اضطروا إلى مراجعة إحدى هذه البطاقات ولم تكن في مكانها ،فإن الوضع سيتفاقم . ومن ارتياب إلى ارتياب ، ومن تحقيق إلى تحقيق ، سينتهي الأمر بأحدهم إلى أن يلاحظ أن دون جوزيه يعيش ملاصقاً لجدار المحفوظات العامة ، التي كما نعرف جيداً ، لا تتمتع بأدنى قدر من الحراسة الليلية ، وسيخطر لأحدهم أن يسأل أين صار ذلك المفتاح الذي يتيح الدخول ، ولم يُسترد . ما يجب أن يكون ، يجب أن يكون ، وبقوة كبيرة ، فكر في ذلك دون جوزيه دون أصالة ، وتوجه نحو الباب . ولكنه توقف فجأة في منتصف الطريق ، إنه لأمر مثير للفضول ، فأنا لم أدقق إذا ما كانت البطاقة التي جاءت ملتصقة هي لرجل أم لامرأة . رجع إلى الوراء ، جلس مجدداً ،سيتأخر قليلاً على هذا النحو منصاعاً لقوة ما يجب أن يكون . كانت البطاقة لامرأة في السادسة والثلاثين ، مولودة في تلك المدينة نفسها ، وفي الوقوعات هناك تثبيت لواقعتين ، واحدة للزواج ، والأخرى للطلاق . من المؤكد أن هناك في صندوق البطاقات مئات ، إن لم يكن آلاف ، مثل هذه البطاقة ، ولهذا لا يُفهم لماذا راح دون جوزيه ينظر إليها بملامح شديدة الغرابة ، ملامح بدت للوهلة الأولى متيقظة ، ولكنها شاردة وقلقة ، ربما هذه هي الطريقة التي ينظر بها من هو آخذ ، دون رغبة أو تنازل ، بالإفلات شيئاً فشيئاً من شيء ، ولا يدري بعد أين سيضع يده ليثبت نفسه من جديد . هناك

دوماً من يشير إلى تعارضات مزعومة وغير مقبولة بين القلق والشرود والتيقظ ، وهؤلاء هم أشخاص يقتصرون على العيش كيفما اتفق ، أشخاص لم يواجهوا القدر قط وجهاً لوجه . دون جوزيه ينظر ويعيد النظر إلى ما هو مكتوب في البطاقة ، لا حاجة إلى القول إن الخط ليس خطه ، فهو ذو جرة انقضت "موضتها" ، فقبل ست وثلاثين سنة دوّن كاتب آخر الكلمات التي يمكن قراءتها هنا ، اسم الطفلة ، اسم الأبوين ، اسم العرابين ، تاريخ وساعة الميلاد ، الشارع ، رقم البناء ، الطابق الذي رأت فيه أول نور وأحست فيه بأول ألم ، بداية مثل بدايات جميع الناس ، لأن الفروقات الكبيرة والصغيرة تأتي فيما بعد ، بعض من يولدون يدخلون الموسوعات ، والتاريخ ، وسير التراجم ، والكتالوجات ، والمراجع ، ومجموعات القصاصات ، والآخرون ، وبمقارنة غير موفقة ، هم مثل سحابة مرت دون أن تُخلف أثراً لمرورها ، وإذا ما أمطرت ، فإنها لم تتوصل إلى بلّ الأرض . وفكر دون جوزيه ، مثلي أنا . كانت خزانته مملوءة برجال ونساء ممن يجري الحديث عنهم كل يوم تقريباً في الصحف ، وعلى الطاولة شهادة ميلاد لشخصية مجهولة ،وكان ذلك كما لو أنه قد وضع في كفتي ميزان ، مئة شخصية في هذا الجانب ، وشخصية واحدة في الجانب الآخر ، ثم اكتشف بعد ذلك ، متفاجئاً ، أن أولئك جميعهم معاً لا يزنون أكثر من هذه ، وأن المئة مساوون للواحد ، وأن واحداً يساوي ما يساويه مئة .لو أن أحداً دخل إلى البيت في تلك اللحظة وسأله فجأة ، أتظن[1] فعلاً أن الواحد الذي هو أنت أيضاً ،يساوي ما يساويه مئة ، أي أن قيمة المئة الذين في خزانتك ، كي لا نذهب بعيداً ، هي مثل قيمتك أنت ، فسوف يرد دون شك ، سيدي العزيز ، أنا مجرد كاتب بسيط ، لستُ أكثر من كاتب بسيط في الخمسين لم يُرفّع إلى مرتبة مأمور ، ولو كنت أظن أني

(١) يعمد المؤلف هنا ، وعلى امتداد الرواية، مثلما هو واضح، إلى إيراد الحوار متصلاً، لا تفصل بينه إلا فواصل، ولكنه يبدأ كلام كل شخصية بحرف كبير، ولأن ذلك غير ممكن بالعربية، فقد لجأنا إلى إبراز الكلمة الأولى في المقاطع الحوارية ليتسنى للقارئ التمييز بين شخصيات المتكلمين.

أساوي ما يساويه واحد فقط من أولئك الذين أحتفظ بهم ، أو أي واحد من هؤلاء الخمسة الأقل شهرة ، لما بدأتُ بجمع هذه المجموعة . لماذا لا تتوقف إذن عن النظر إلى هذه المرأة المجهولة ، كما لو أنها تكتسب فجأة أهمية أكبر من كل الآخرين ، لهذا السبب تحديداً يا سيدي العزيز ، لأنها مجهولة ، دعك من هذا ، فخزانة البطاقات في المحفوظات مملوءة بالمجهولين ، ولكنهم في خزانة البطاقات ، وليسوا هنا ، ما الذي تعنيه ، لا أعرف بالضبط ، في هذه الحالة دعك من الأفكار الميتافيزيقية التي لم يولد دماغك من أجلها على ما أعتقد ، وأعد البطاقة إلى مكانها ونم بسلام ، هذا ما أسعى إلى فعله ، مثلما أفعل كل ليلة ، وكانت نبرة الجواب تميل إلى المصالحة ، ولكن كان ما يزال لدى دون جوزيه شيء يضيفه : أما بالنسبة للأفكار الميتافيزيقية يا سيدي العزيز ، فاسمح لي أن أقول لك إنه يمكن لأي رأس أن يُنتجها ، حتى وإن لم يجد الكلمات المناسبة في أحيان كثيرة .

وعلى عكس ما كان يتمناه ، لم يستطع دون جوزيه النوم بالطمأنينة النسبية المعهودة . كان يقتفي في المتاهة المضطربة لدماغه الذي بلا ميتافيزيقيا أثر الأسباب التي دفعته إلى استنساخ بطاقة المرأة المجهولة ، ولم يستطع العثور على سبب واحد يمكن له أن يحدد ، بصورة واعية ، ذلك العمل غير المتوقَّع . فهو يكاد يكون عاجزاً عن أن يتذكر حركة يده اليسرى وهي تتناول البطاقة البيضاء ، ثم بعد ذلك يده اليمنى وهي تكتب ، وعينيه وهما تنتقلان من بطاقة كرتونية إلى أخرى ، كما لو أنهما في الواقع هما اللتان تنقلان الكلمات من هناك إلى هنا . كما أنه يتذكر كيف دخل ، متفاجئاً بنفسه من نفسه ، إلى المحفوظات العامة حاملاً المصباح اليدوي بقوة ، دون عصبية ، دون جزع ، وكيف أعاد وضع البطاقات الست في أماكنها ، وكيف كانت البطاقة الأخيرة هي بطاقة المرأة المجهولة ، وكيف بقيت مضاءة حتى اللحظة الأخيرة بضوء المصباح ،

ثم انزلقتَ بعد ذلك إلى أسفل ، غارقة ، ومختفية بين كرتون حرف سابق وكرتون حرف لاحق ، اسماً على بطاقة ، ولا شيء أكثر . في منتصف الليل ، أشعل الضوء وقد استنفده عدم النوم . ثم نهض بعد ذلك ، وارتدى المعطف فوق ملابسه الداخلية وجلس إلى المنضدة . نام بعد وقت طويل جداً ، ورأسه مستند إلى ساعده الأيمن وكفه اليسرى مستقرة فوق نسخة من بطاقة .



ظهـر قرار دون جـوزيه بعـد يومين من ذلك . وعـمـوماً لا يقـال إن قراراً قد ظهر لنا ، فالأشخاص شديدو الغيرة على هويتهم ، مهما كانت غامضة ، وعلى سلطتـهم ، مهـمـا كـانـت ضـئـيلة ، يفضلون الإيحـاء بأنهم يفكرون مسبقاً قبل أن يُقدموا على الخطوة الأخيرة ، وأنهم أمعنوا النظر في المنافع والمضار ، وفكروا ملياً في الاحتمالات والخيارات ، وأنهم ، بعد بذل جهد ذهني مكثف ، اتخذوا أخيراً القرار . لا بد من القول إن الأمور لا تحدث على هذا النحو . فليس هناك من تخطر لذهنه فكرة الأكل ما لم يشـعـر بشـهـية كـافـية ، والشـهـيـة لا ترتبط بإرادة كل شـخـص ، وإنما هي تتـشكل من تلقاء ذاتها ، تنتج عن احتياجات موضوعيـة للجسـد ، إنها مسألة فيزيو-كيميائية يكمن حلها ، بصورة مرضية ، بهذا القدر أو ذاك ، في مـحـتـويات الطبق . بل إن عـمـلاً شـديد البـسـاطة مـثل النزول إلى الشارع من أجل شراء الصحيفة لا يفترض فقط وجود رغبة كافية لتلقي معلومات ، ونوضح هنا ، أن كون هذا العمل رغبة ، فهو بالضرورة شهـية ، ونتـيجة فعاليات فيزيو-كيميائية خاصة بالجسد ، وإن تكن من طبيعة مختلفة ، كما يفـتـرض هذا العمل الروتيني كذلك ، على سبيل المثل ، اليقين ، أو القناعة ، أو الأمل ، غير الواعي ، بألا تتأخر سيارة التوزيع أو ألا يكون كشك بيع الصحف مغلقاً بسبب مرض مالكه أو تغيبه الإرادي .

أضف إلى ذلك ، إذا ما ألححنا في التأكيد على أننا نحن من نتخذ قراراتنا ، علينا أن نبدأ بتوضيح ، وتبصر ، وتمييز من هو ، في ذواتنا ، ذاك الذي اتخذ القرار ومن هو الذي سوف يُنفذه بعد ذلك ، وهما عمليتان مستحيلتان حيثما توجدان . فنحن في الواقع لا نتخذ قرارات ، وإنما القرارات هي التي تتخذنا . والدليل نجده في أننا نمضي حياتنا في التنفيذ المتوالي لأكثر الأفعال تنوعاً ، دون أن يسبق كل واحد منها فترة تفكير ، تقويم ، حساب ، نعلن في نهايتها ، وفي نهايتها فقط ، أننا في شروط نستطع معها أن نقرر إذا ما كنا سنذهب للغداء ، أو لشراء الصحيفة ، أو للبحث عن المرأة المجهولة .

لهذه الأسباب ، لن يعرف دون جوزيه ، حتى لو كان خاضعاً لأكثر الاستجوابات تركيزاً ، أن يقول كيف ولماذا اتخذ القرار ، ولنستمع إلى التفسير الذي سيقدمه ، ما أعرفه فقط هو أنها كانت ليلة الأربعاء ، وكنتُ في البيت ، ولم أشأ تناول العشاء لشدة التعب الذي كنت أشعر به ، فقد كنت أحس بأن رأسي ما زال يدور لأنني أمضيت النهار كله فوق ذلك السلّم، يتوجب على الرئيس أن يفهم أني لم أعد في سن تتيح لي القيام بتلك البهلوانيات ، وأنني لست فتياً بأي حال ، فضلاً عن المعاناة . أي معاناة . أعاني من الدوخة ، الدوار ، جاذبية الهاوية ، أو أي شيء يسمونه ، لم تشكُ من ذلك قط ، لا أحب الشكوى ، هذا جميل منك ، تابع ، كنتُ أفكر في أن آوي إلى الفراش ، إنني أكذب ، فقد كنتُ قد خلعت حذائي ، عندما اتخذت القرار فجأة ، إذا كنتَ قد اتخذت القرار ، فأنت تعرفُ لماذا اتخذته ، أظن لأنني لم أتخذه أنا ، وإنما كان هو الذي اتخذني ، الأشخاص الطبيعيون يتخذون القرارات ، ولا يُتَخَذون هم من قِبَل القرارات ، هكذا كنتُ أفكر أنا أيضاً حتى ليلة الأربعاء ، وما الذي حدث في ليلة الأربعاء . حدث هذا الذي أرويه لك ، كانت بطاقة المرأة المجهولة على الكوميدينو ، ورحت أنظر إليها كما لو أنني أراها للمرة الأولى ، ولكنك كنتَ قد رأيتها من قبل ، منذ يوم الاثنين لم أكن

أفعل في البيت شيئاً آخر غير ذلك ، كنتَ تبيت القرار ، أو أنه كان يبيتي ، هيا ، دعنا من هذا الكلام ، ولا تعد إليه مرة أخرى ، انتعلتُ الحذاء من جديد ، ارتديت السترة والمعطف وخرجت ، حتى أنني لم أتذكر ربطة العنق ، وكم كانت الساعة ، حوالي العاشرة والنصف ، وأين ذهبت بعد ذلك ، إلى الشارع الذي ولدت فيه المرأة المجهولة ، وبأي نية ذهبت ، أردتُ رؤية المكان ، المبنى ، البيت ، أنت تعترف أخيراً بأنه كان هناك قرار ، وأنكَ أنت ، مثلما يجب أن يكون الأمر ، من اتخذ ذلك القرار ، لا يا سيدي ، كل ما هنالك أنني وعيته ، لا شك في أنك تتقن المحاججة ، مع أنك لست سوى كاتب ، ليس هناك من يهتم بالكتبة عموماً ، ولا من ينصفهم ، تابع أقوالك ، كان البناء هناك ، وكان هناك ضوء في النوافذ ، أنت تعني بيت المرأة ، أجل ، وماذا فعلتَ بعد ذلك ، مكثتُ هناك بضع دقائق ، وأنتَ تنظر ، أجل يا سيدي ، وأنا أنظر ، تنظر فقط ، أجل يا سيدي ، أنظر فقط ، وبعد ذلك ، بعد ذلك ، لا شيء ، ألم تطرق الباب ، ألم تصعد ، ألم توجه أسئلة ، يا لهذه الفكرة ، لم يخطر مثل هذا الخاطر في ذهني بأي حال ، في مثل تلك الساعة من الليل ، وكم كانت الساعة ، لا بد أنها كانت عندئذ قد قاربت الحادية عشرة والنصف ، أذهبتَ مشياً على قدميك ، أجل يا سيدي ، وكيف رجعت ، مشياً على الأقدام أيضاً ، أي أنه لا شهود لديك ، أي شهود ، الشخص الذي التقاك عند الباب ، إذا كنتَ قد صعدت ، أو سائق ترام أو حافلة ، على سبيل المثال ، وعلى أي شيء سيكونون شهوداً ، على أنك كنت فعلاً في شارع المرأة المجهولة ، وما الفائدة من هؤلاء الشهود ، لكي يثبتوا أن كل هذا لم يكن حلماً ، لقد قلتُ الحقيقة ، الحقيقة وحدها ، ولا شيء سوى الحقيقة ، إنني تحت القسم ، وكلمتي يجب أن تكون كافية ، يمكن لها أن تكفي ، ربما ، لو لم يكن في قصتك تفصيل مريب جداً ، أو لنقل غير لائق . أي تفصيل تعني ، ربطة العنق ، وما علاقة ربطة العنق بهذه القضية ، الموظف في المحفوظات العامة للسجل المدني لا يذهب إلى أي مكان دون أن يضع ربطة العنق ، هذا مستحيل ، لأن ذلك سيكون خطأ ضد الطبيعة نفسها ،

لقد قلتُ لك إنني لم أكن في وعيي ، وإنني كنتُ مُتَخَذاً من قِبَل القرار ، وهذا دليل آخر على أنك كنت تحلم ، لا أرى سبباً لذلك ، أمامك أحد أمرين ، إما أن تعترف بأنك قد اتخذت القرار مثلما يفعل الجميع ، وسأكون عندئذ مستعداً لأن أصدق بأنك ذهبت دون ربطة عنق إلى شارع المرأة المجهولة ، وهو انحراف معيب في السلوك المهني لا أريد التدقيق فيه حالياً ، وإما أن تصر على القول بأن القرار اتخذك ، وهذا أمر ، إضافة إلى مسألة ربطة العنق غير القابلة للتأويل ، لا يمكن القبول به إلا في حالة الحلم ، أكرر أنني لم أتخذ القرار ، نظرتُ إلى البطاقة ، انتعلتُ الحذاء وخرجت ، كنتَ تحلم إذن ، لم أحلم ، استلقيتَ ، غلبكَ النعاس ، حلمتَ بأنك ذاهب إلى شارع المرأة المجهولة ، يمكنني أن أصف الشارع ، عليك أن تُثبت لي أنك لم تمر من هناك قط من قبل ، يمكنني أن أقول لك كيف هي البناية ، هيا ، دعك من هذا ، فجميع البنايات تبدو رمادية في الليل ، الرمادية في الليل هي القطط ، والبنايات أيضاً ، أنت لا تصدقني إذن ، لا ، لماذا ، إذا تكرمت وسمحت لي بالسؤال ، لأن ما تؤكد أنك فعلته لا يدخل في واقعي ، وما لا يدخل في واقعي لا وجود له ، الجسم الذي يحلم هو واقع ، ولا بد بالتالي ، إلا إذا كان هناك رأي أكثر دقة ، من أن يكون الحلم الذي يحلم به الجسم واقعا أيضاً ، الحلم له واقعيته كحلم وحسب ، أتعني بأن واقعيتي الوحيدة هي هذه ، أجل ، هذه هي واقعيتك المعاشة الوحيدة ، هل أستطيع العودة إلى العمل ، يمكنك ذلك ، ولكن عليك أن تستعد لأنه ما زال علينا أن نناقش مسألة ربطة العنق .

بعد أن تخلص دون جوزيه بنجاح من التحقيق الإداري حول الاستمارات المفقودة ، ولكي لا يفقد المكاسب الديالكتيكية المتحققة، ابتدع في ذهنه توهم هذا الحوار الجديد ، الذي خرج منه منتصراً بسهولة ، على الرغم من النبرة الساخرة والمتوعدة للمجادل ، في قراءة جديدة ، أكثر تيقظاً ، يمكنه إثباتها . وقد حاجج بقناعة كبيرة إلى حد كان قادراً على أن يكذب حتى على نفسه ثم تأكيد الكذبة بعد ذلك دون أي تأنيب ضمير ،

كـمـا لو أنه لم يكن هو أول من يعـرف أنه دخل فـعلاً إلى المبنى وصـعـد الدرج ، وأنه ألصق أذنه على بـاب الشقـة التي ، حسب البطاقة ، ولدت فيها المرأة المجهولة . صحيح أنه لم يجرؤ على قرع الجرس ، وقد قال الحقيقة في هذه النقطة ، ولكنه بقي بضع دقـائق على بسطة الدرج المعـتـمـة ، ثابتـاً ، متوتراً ،محاولاً تمييز الأصوات التي تأتي من الداخل ، بفضول شديد كاد أن ينسى معه الخوف من أن يُفَاجَأ ويُحسب لصاً من لصوص البيوت . سمع البكاء الغاضب لطفل ذي أقمطة ، لا بد أنه الابن ، ثم سمع همساً عذباً لتهديلة مهد أنثوية ، إنها هي ، وفجأة صوت رجل قال من الجانب الآخر ، هذا الطفل لن يسكت أبداً ،طفـر قلب دون جوزيه من الخـوف ، إذا مـا انفتح الباب ، وهو أمر يمكن أن يحدث ، وربما خرج الرجل ، سيسأله ، من أنت ، ما الذي تبحث عنه هنا ، ماذا سأفعل الآن ، تساءل دون جوزيه ، يا لبؤسه ، لم يفعل شيئاً ،بقي مشلولاً هناك ، أعزل ،وحالفه الحظ بأن أبا الطفل لا يمارس العادة القديمة بالذهاب إلى المقهى بعد العشـاء لتبـادل الأحاديث مع أصدقائه . حينئذ ، وعندما لم يعد يُسمع سوى بكاء الطفل ، بدأ دون جوزيه بنزول الدرج ببطء ، دون أن يشعل الضوء ، ملامساً الجدار بيده اليسرى كيلا يفقد توازنه ، كانت انحناءات درابزين الدرج شديدة البروز ، وفي مستوى معين غمرته موجة رعب حين فكر بما سيحدث إذا ما جاء شخص آخر ، صامتاً ، وغير مرئي لعينيه ، صاعداً في تلك اللحظة الدرج وهو يتلمس الجدار بيده اليمنى ، لن يمضي وقت طويل قبل أن يصطدما ، رأس الآخر سيصطدم بصدره ، صحيح أن الحال سيكون أسوأ بكثير مما لو كـان في أعلى السلّم اليدوي وجاءت عنكبوت لتلعق وجـهـه ، ويمكن أن يكون قد لحق به كذلك إلى هنا أحدٌ من المحفوظات العامة بنية مفاجأته متلبساً بالجرم ويمكنه بذلك عقد المحكمة الانضباطية ، وربما تكون هذه المحكمة قد بدأت مسارها ، وأن ما ينقصها هو الدليل الملموس . عندما وصل دون جوزيه أخيراً إلى الشارع كانت ساقاه ترتعدان ، والعرق يسيل

على جبهته . لقد تحوّلتُ إلى لفافة من الأعصاب ، قال مؤنباً نفسه . بعد ذلك ، وبصورة هذيانية ، كما لو أن دماغه قد اختل فجأة وتحرك في كل الاتجاهات ، وكما لو أن الزمن قد انكمش ، من الوراء إلى الأمام ومن الأمام إلى الوراء ، لينحصر في لحظة مكثفة ، فكّر في أن الطفل الذي سمعه يبكي خلف الباب هو المرأة المجهولة نفسها ، قبل ست وثلاثين سنة ، وأنه هو نفسه صبي في الرابعة عشرة من عمره ، ليس لديه أي سبب للبحث عن أحد ، وخصوصاً في مثل هذه الساعة من الليل . وبينما هو واقف على الرصيف ، نظر إلى الشارع وكأنه لم يره بعد ، فمنذ ست وثلاثين سنة كانت مصابيح الإنارة العامة تقدم ضوءاً أشد شحوباً ، ولم تكن حجارة الشارع قد عُبدت بالإسفلت بعد ، كانت حجارة مرصوفة في خطوط متناسقة ، وكانت لوحة المتجر الذي على الناصية تعلن عن أحذية وليس عن وجبات سريعة . تحرك الزمن ، وبدأ يتمدد شيئاً فشيئاً ، ثم بسرعة أكبر ، بدا وكأنه يهتز في ارتجاجات عنيفة ، كما لو أنه في داخل بيضة يجاهد للخروج منها ، الشوارع تتوالى ليحل بعضها محل بعض ، البنايات تظهر وتختفي ، يتبدل لونها ، وشكلها ، وكل الأشياء تبحث بجزع عن أماكنها قبل أن يأتي ضوء الفجر لينقل الأماكن مجدداً . وراح الزمن يعدّ الأيام منذ البداية ، مستخدماً الآن جدول الضرب لكي يستعيد التأخير ، وقد فعل ذلك بصورة صائبة تماماً بحيث أن دون جوزيه عاد مرة أخرى إلى الخمسين من عمره فور وصوله إلى البيت . أما الطفل الباكي ، فكان هو وحده من كَبُرَ ساعة ، مما يُثبت أن الزمن ليس متماثلاً لدى الجميع ، بالرغم من أن الساعات الآلية تريد أن تقنعنا بعكس ذلك .

أمضى دون جوزيه ليلة عسيرة ، ليضيفها إلى سابقاتها التي لم تكن أفضل منها . ومع ذلك ، على الرغم من الانفعالات الجياشة التي عاشها خلال رحلته الليلية القصيرة ، فإنه لم يكد يغطي أذنه بطيّة الملاءة ، كعادته ، حتى غرق في نوم يمكن لأي شخص أن يسميه ، للوهلة الأولى ، عميقاً ومرمماً

للقوى ، ولكنه ما لبث أن خرج منه فوراً ، بصورة مفاجئة ، كما لو أن أحداً قد هزه من كتفه ، دون احترام أو تروٍ . لقد أيقظته فكرة مباغتة برزت في منتصف حلمه ، بصورة صاعقة جداً لم تُتح الوقت لأن يختلط نسيج حلم بها ، فكرة أن تكون المرأة المجهولة ، صاحبة البطاقة ، هي في نهاية المطاف تلك التي سمعها تهدهد للطفل ، امرأة الزوج نافد الصبر ، وفي هذه الحالة يكون بحثه قد انتهى ، انتهى بسخف ، في اللحظة التي يجب أن يبدأ فيها تحديداً .ضغط غم مفاجئ على حنجرته ، بينما العقل المحزون يحاول المقاومة ،يريد منه أن يبدي عدم مبالاته ، أن يقول لنفسه ، هذا أفضل ، فهكذا سيكون لدي عمل أقل ، ولكن الغم لم يزايله ، واصل الضغط ، وكان هو [الغم] من سأل العقل ، وما الذي سيفعله هو ، إذا لم يستطع تحقيق ما يفكر فيه ،سيفعل ما دأب على فعله دوماً ،سيجمع قصاصات صحف ، صوراً ،أخباراً ،مقابلات ، وكأن شيئاً لم يحدث ، يا للمسكين ، لا أظنه سيتوصل إلى ذلك ، لماذا ، عندما يأتي الغم ، فإنه لا يغادر بهذه السهولة ، يمكنه أن يختار بطاقة أخرى ثم يبدأ بعد ذلك البحث عن هذا الشخص الجديد ، المصادفة لا تختار ، وإنما تعرض ، والمصادفة هي التي جاءته بالمرأة المجهولة ، والمصادفة وحدها هي التي تملك صلاحية الاختيار في هذا الشأن ، لن يعدم وجود مجهولين في خزانة البطاقات ، ولكنه سيعدم المبررات لاختيار واحد منهم وليس آخر ، واحد منهم بالتحديد وليس واحداً عشوائياً من بين كل الآخرين ، لا أظن أن تسليم قيادنا للمصادفة سيكون قاعدة جيدة للحياة ، سواء أكانت قاعدة جيدة أم لم تكن ، وسواء أكانت مناسبة أم لا ، فإن المصادفة هي التي وضعت بين يديه تلك البطاقة ، وماذا لو كانت المرأة هي نفسها ، لو كانت المرأة نفسها ،فإن المصادفة هي التي شاءت ذلك ، دون أية عواقب أخرى ، ومن نكون نحن حتى نتكلم عن العواقب ، إذا كنا لا نكاد نرى من الرتل غير المتناهي الذي يسير باتجاهنا دون توقف إلا أوله ، هذا يعني أنه ما زال بالإمكان حدوث شيء ،شيء ،

لا ، بل كل شيء ، لستُ أفهم ، إننا نعيش منذهلين إلى حد لا نلاحظ معه بأن ما يحدث لنا ، في كل لحظة ، لا يمس ما يمكن أن يحدث لنا ، هل يعني هذا أن ما يمكن أن يحدث يأخذ بالتوالد بصورة دائمة ، إنه لا يتوالد فقط بقدر ما يتكاثر ، ويكفي أن نقارن بين يومين متتاليين ، لم أفكر قط بأن الأمر على هذا النحو ، إنها أمور لا يعرفها جيداً إلا المغمومون .

وكما لو أن المحادثة لم تكن معه ،كان دون جوزيه يتقلب في السرير دون أن يجد إلى النوم سبيلاً . إذا ما كانت المرأة هي نفسها، كان يكرر ، إذا ما كانت المرأة بعد كل شيء هي نفسها ،فسأمزق البطاقة اللعينة ولن أفكر في الموضوع أكثر .كان يعرف أنه إنما يحاول التستر على الإحباط ، يعرف أنه لن يتحمل العودة إلى الأفكار المعهودة ، كان يبدو وكأنه كان على وشك الإبحار لاكتشاف الجزيرة السرية الغامضة في اللحظة الأخيرة ، بينما هو يضع قدمه على معبر الصعود إلى السفينة ، يظهر أحدهم وهو يحمل خريطة مبسوطة ، ليس هناك ما يستحق عناء انطلاقك في هذه الرحلة ،فالجزيرة المجهولة التي تريد العثور عليها موجودة هنا ، انظر ، على خط العرض كذا ، وعلى خط الطول كذا ، فيها موانئ ومدن ، جبال وأنهار ، وكلها لها أسماؤها وتواريخها، من الأفضل أن تقنع بتقبل كونك ما أنت عليه . ولكن دون جوزيه لا يريد الاستسلام ، ويواصل النظر نحو الأفق الذي يبدو ضائعاً ،وفجأة ، كما لو أن سحابة سوداء قد انقشعت لتسمح بظهور الشمس ، انتبه إلى أن الفكرة التي أيقظته كانت خادعة ، وتذكر أن البطاقة تتضمن واقعتين ، إحداهما واقعة الزواج ، والأخرى هي الطلاق ، وتلك المرأة التي في البناء متزوجة بالتأكيد ، ولو أنها المرأة نفسها فلا بد للبطاقة من أن تتضمن واقعة الزواج الجديد ،صحيح أن المحفوظات قد تخطئ أحياناً ،ولكن دون جوزيه لم يشأ التفكير في ذلك .



متعللاً بأسباب خاصة ذات قوة كبرى لا تقاوم ، اعتذر بأنه لا يستطيع الإفصاح عنها ، ومُذكراً على كل حال بأنها المرة الأولى خلال خمس وعشرين سنة من الخدمة المخلصة والتقيد الدقيق بمواعيد العمل التي يفعل فيها ذلك ، طلب دون جوزيه الإذن له بالخروج قبل ساعة من موعد انتهاء العمل . ومتبعاً التدابير التي تنظم علاقات التسلسل الوظيفي في المحفوظات العامة للسجل المدني ، بدأ بعرض رغبته على مأمور قسمه ، الذي تتوقف على طيب أو سوء استعداده الروحي الطريقة التي سيُنقل بها الطلب إلى نائب المدير المختص ، والذي سيحذف بدوره أو سيضيف بعض الكلمات ، وسيشدد على هذا المقطع الصوتي أو يحذف ذاك ، بحيث يمكنه ، إلى حد ما ، أن يؤثر في القرار النهائي . ومع ذلك ، كانت الشكوك حول هذه النقطة أكبر بكثير من اليقين ، لأن الأسباب التي تدفع المدير إلى منح موافقته على الإذن أو ذاك ، أو حجبها عنه ، لا يعرفها أحد سواه ، وليس هناك من مذكرة أو سجل ، خلال سنوات طويلة من عمل المحفوظات ، لبلاغ وحيد ، خطي أو شفوي ، يتضمن القواعد المناسبة . ولهذا ستبقى مجهولة إلى الأبد الأسباب التي مُنح بمقتضاها دون جوزيه الإذن بالخروج قبل نصف ساعة من انتهاء الدوام بدلاً من الساعة الكاملة التي طلبها . من المشروع أن نتصور ، وإن لم

يكن ذلك سوى تأمل مجاني ، لا يمكن إثباته ، بأن المأمور أولاً ، أو نائب المدير بعد ذلك ، أو كليهما معاً ،قد أضافا بأن مثل ذلك التغيب الطويل سيؤثر سلباً على سير العمل ، ومن المحتمل جداً أن يكون المدير قد انتهز الفرصة لكي يُذِلّ مجدداً مرؤوسيه باستعراض سلطاته المتميزة . وعندما أبلغه المأمور بالقرار الذي كان نائب المدير قد أبلغه به ، أجرى دون جوزيه حساباً للوقت وتوصل إلى أنه سيضطر ، إذا كان لا يريد مواجهة صاحب البيت عائداً من عمله ، إلى أن يستقل سيارة أجرة ، وهي ترف إذا ما وُجدت ، نادر جداً في حياته . لن يكون بانتظاره هناك ، وقد يحدث ألا يكون هناك أحد في البيت في تلك الساعة ، ولكن ما يرغب فيه ،قبل كل شيء ، هو ألا يجد نفسه مضطراً إلى المواجهة مع رجل متبرم ، لأن إرضاء ريبة شخص كهذا ستكون أصعب منالاً من الرد على أسئلة امرأة تحمل طفلاً بين ذراعيها .

لم يفتح الرجل الباب ، كما أنه لم يسمع صوته بعد ذلك من داخل البيت ، وهذا يعني أنه ما زال في العمل أو أنه قادم في الطريق ، ولم تكن المرأة تحمل الطفل بين ذراعيها . أدرك دون جوزيه على الفور أن المرأة المجهولة ، سواء أكانت متزوجة أم مطلقة ، لا يمكن لها أن تكون هي نفسها تلك التي أمامه . فمهما بلغ سعيها للحفاظ على شبابها ، ومهما بلغ ترفق الزمن في معاملتها ،فإنه من غير الطبيعي لشخص يحمل في جسده ستاً وثلاثين سنة أن يبدو دون الخامسة والعشرين في ملامح وجهه . وكان يمكن لدون جوزيه أن يدير لها ظهره وينصرف ببساطة ، أو أن يتلعثم بأي تبرير سريع ، كأن يقول ، مثلاً ، المعذرة ، لقد أخطأت ، إنني أبحث عن شخص آخر ،ولكن طرف خيط آريان الخاص به ، من أجل استخدام اللغة الميثولوجية على النسق البيروقراطي ، كان هناك بطريقة أو بأخرى ، وهذا دون إغفال الاحتمال العقلاني بوجود أشخاص آخرين يعيشون في البيت ، ومن بينهم المرأة التي هي محط بحثه ، مع أن روح

دون جوزيه ، مثلما نعرف ، كانت ترفض هذا الاحتمال بحدة . أخرج البطاقة من جيبه ، بينما هو يقول ، مساء الخير يا سيدتي ، مساء الخير ، ماذا تريد ، سألته المرأة ، أنا موظف من المحفوظات العامة للسجل المدني ومكلف بالتحري حول بعض اللبس الذي نشأ في سجل شخص نعرف أنه ولد في هذا البيت ، لم أولد أنا ولا زوجي هنا ، وإنما ابنتنا فقط ، وعمرها الآن ثلاثة شهور ، ولا أظن أنها المعنية ، يا لهذه الفكرة ، الشخص الذي ابحث عنه امرأة في السادسة والثلاثين ، أنا عمري سبع وعشرون ، لا يمكن أن تكوني المرأة المقصودة بالطبع ، قال دون جوزيه ذلك ثم أضاف ، ما اسمك . أعطته المرأة الاسم ، وتوقف هو برهة ليبتسم ، ثم سألها بعد ذلك ، هل تعيشين في هذا البيت منذ زمن طويل ، منذ سنتين ، وهل تعرفتِ على الأشخاص الذين كانوا يقيمون هنا من قبل ، هؤلاء ، وقرأ اسم المرأة المجهولة واسمي أبويها ، لسنا نعرف أي شيء عن هؤلاء الناس ، كان البيت شاغراً واتفق زوجي على استئجاره مع وكيل المالك ، هل هناك في البناية مستأجر قديم ، في الشقة اليمنى من الطابق فوق الأرضي تعيش سيدة مسنة ، وهي كما سمعتُ أقدم مستأجرة في البناء ، ربما لم تكن تعيش هنا قبل ست وثلاثين سنة ، فالناس ينتقلون كثيراً هذه الأيام ، هذا ما لا يمكنني الحسم فيه ، من الأفضل أن تتحدث معها ، والآن عليّ أن أنصرف ، فزوجي على وشك المجيء وهو لا يروقه أن يراني أتحدث مع الغرباء ، كما أنني أقوم بإعداد العشاء ، إنني موظف في المحفوظات العامة للسجل المدني ، ولستُ غريباً ،وقد جئت في مهمة، وإذا كنتُ قد أزعجتك فإنني أطلب المعذرة ، لهجة دون جوزيه اللطيفة ليّنت المرأة ، لا ، أنت لم تزعجني في الحقيقة ، وما أردتُ قوله فقط هو أنه لو كان زوجي هنا لطلب منك أولاً ثبوتياتك ، سأريكِ بطاقتي كموظف ، انظري ، آه ، حسن جداً ، أنتَ تُدعى دون جوزيه ، ولكنني عندما قلت ثبوتياتك كنتُ أعني الوثيقة الرسمية التي تُذكر فيها القضية التي تحققُ

فيها ، المدير لم يفكر في أنني سأُقابل بالريبة ، لكل شخص طريقته في النظر إلى الأمور ، والجارة التي تسكن في الشقة اليمنى من الطابق فوق الأرضي هي . . إنها كارثة ، لا تفتح بابها لأحد ، أما أنا فمختلفة ،فأنا أحب التحدث مع الناس ، أشكرك على لطفك في التعامل معي ، يؤسفني أنني لم أستطع أن أفيدك أكثر ، بل على العكس ، لقد ساعدتني كثيراً، فقد حدثتني عن السيدة التي في الطابق فوق الأرضي وعن مسألة الثبوتيات ، لحسن الحظ أنك تفكر بهذه الطريقة . وكان يبدو أن المحادثة ستستمر لبضع دقائق أخرى ، ولكن سكون البيت قُطع فجأة ببكاء الطفل الذي استيقظ ، أهو طفل ، قال دون جوزيه ، لا ، ليس طفلاً ، بل طفلة ، لقد قلت لك ذلك من قبل ، وابتسمت المرأة فابتسم دون جوزيه أيضاً .وفي هذه اللحظة سُمع صوت الباب السفلي وأضيء نور الدرج . فهمست المرأة ، إنه زوجي ، فأنا أعرف طريقته في الدخول ، انصرف متظاهراً بأنك لم تتحدث معي . لم ينزل دون جوزيه . وإنما صعد بسرعة ، دون أن يُحدث ضجة ، على رؤوس أصابعه ، إلى بسطة الدرج العلوية وبقي هناك ، مستنداً إلى الجدار ، وقلبه يخفق كما لو أنه يعيش مغامرة خطرة ، بينما خطى الرجل الشاب الواثقة تتعالى وتقترب .قُرع الجرس ، وما بين فتح الباب وإغلاقه كان بكاء الطفلة ما يزال مسموعاً ، ثم ملأ بعد ذلك صمت عظيم حلزون الدرج . وبعد دقيقة من ذلك انطفأ النور العلم . وعندئذ انتبه دون جوزيه إلى أن كل الحوار مع المرأة قد دار في عتمة جوف البناء المتواطئة ،كما لو أن أحدهما يريد إخفاء شيء ،وكان التواطؤ هو الكلمة غير المتوقعة التي وردت إلى ذهنه ، تواطؤ بأي شيء ، تواطؤ لأي شيء ، تساءل ، والحقيقة أن المرأة لم تُعد إشعال الضوء حين انطفأ بعد تبادلهما الكلمات الأولى . بدأ أخيراً نزول الدرج ، متوخياً كل الحذر في أول الأمر ، ثم متعجلاً بعد ذلك ، ولم يتوقف إلا برهة ليسترق السمع أمام باب الشقة اليمنى في الطابق فوق الأرضي ،وكان يأتي

صوت يجب أن يكون صادراً عن مذياع ، لم يفكر في قرع الجرس ، سيؤجل التحريات الجديدة إلى نهاية الأسبوع ، حتى يوم السبت أو الأحد ، وعندئذ لن يكون غافلاً ،سيحضر ووثيقة التكليف في يده ، سآتي مزوداً بصلاحية رسمية لا يتجرأ أحد على التشكيك فيها . ستكون وثيقة مزيفة ، طبعاً ، ولكنها ستجنبه ، بقوة أنها ستكون مكتوبة على ورقة رسمية ومهورة بخاتم حقيقي ، الجهد في محاولة إبعاد الشبهات قبل الدخول في لب القضية . أما بالنسبة إلى توقيع الرئيس ، فإنه يشعر بالطمأنينة التامة ،فمن غير المحتمل أن تكون السيدة مديدة العمر ساكنة الطابق فوق الأرضي قد رأت من قبل توقيع المدير ، ولن يكون من الصعب عليه ، إذا ما أمعن التفكير ، أن يقلد التوقيع بفضل سعة مخيلته التنميقية . وإذا ما سار كل شيء على ما يرام هذه المرة ، مثلما هو متأكد أنه سيحدث ، فسوف يستخدم الوثيقة كلما واجهته مصاعب أو أحس أنها ستواجهه في تحرياته المستقبلية ، لأنه كان مقتنعاً بأن تقصيه لن ينتهي في الطابق فوق الأرضي . فلو افترض أن المستأجرة موجودة منذ الزمن الذي كانت فيه أسرة المرأة المجهولة تعيش في البناء ، فمن الممكن أن يتبين أنه لم يكن هناك وئام بينهم ، وأن كل شيء يُختزل ، في ذاكرة العجوز المتعبة ، ببضع ذكريات غائمة ، وهذا يعتمد على عدد السنوات التي انقضت منذ انتقال الأسرة من الطابق الثاني إلى مكان آخر في المدينة . أو إلى مكان آخر من البلاد ، أو من العالم ، فكر في ذلك قلقاً وقد صار في الشارع . الشخصيات المشهورة في مجموعته ، أينما ذهبت ، هنالك دائماً صحيفة أو مجلة تقتفي آثارهم وتتشمم رائحتهم لالتقاط صورة أخرى لهم ، لتوجيه سؤال آخر إليهم ، أما الناس العاديون فلا أحد يتذكرهم ، لا أحد يهتم فعلاً بهم ، ولا أحد يحفل بمعرفة ما يفعلون ، أو ما يفكرون ، أو بما يشعرون ، حتى عند محاولة جعلهم يعتقدون عكس ذلك ،فإن التصنع يبدو واضحاً . إذا ما كانت المرأة

المجهولة قد ذهبت لتعيش خارج البلاد ، فإنها ستكون بعيدة عن متناول يده ، وستكون كما لو أنها ميتة ، نقطة وانتهى ، هكذا ستنتهي القصة، غمغم دون جوزيه ، ولكنه قدّر بعد ذلك أن الأمر لن يكون على هذا النحو ،فلا بد أن تكون قد خلّفت وراءها حياة قبل رحيلها ، ربما حياة قصيرة فقط ، أربع سنوات ، خمس سنوات ، لا شيء يُذكر تقريباً ، أو ربما خمس عشرة أو عشرين سنة ،لقاء ما ، تألق ما ،خيبة ما ،بضع ابتسامات ، بضع دمعات ، ما هو للوهلة الأولى متشابه لدى الجميع بينما هو في الواقع مختلف من واحد إلى آخر . ومختلف أيضاً في كل مرة . سأصل إلى حيث يمكن لي الوصول ،قرر دون جوزيه بهدوء ليس من شيمه . وكما لو كانت تلك هي النتيجة المنطقية لما فكر فيه ، دخل إلى مكتبة واشترى دفتراً سميكاً مُسطّر الأوراق ، من تلك التي يستخدمها الطلاب لتدوين المواد المدرسية كلما ازداد ظنهم بأنهم آخذون في فهمها .

لم يأخذ منه تزييف وثيقة التوكيل وقتاً طويلاً .فخمس وعشرون سنة من الممارسة الكتابية اليومية تحت مراقبة مأمورين غيورين ونائبي مدير متشددين زودته بسيطرة كاملة على سلاميات أصابعه ، وعلى معصميه ، وعلى مفتاح اليد ، وثبات مطلق سواء في الخطوط المائلة أو المستقيمة ، وحس شبه غريزي لجرة القلم الغليظة والرفيعة ، وحدس متقن لدرجة انسياب الأحبار أو لزوجتها ، والتي أعطت محصلتها ، حين وُضعت موضع الاختبار في هذه المناسبة ، وثيقةً يمكن لها أن تصمد حيال تحريات أشد عدسات التكبير قوة . الأشياء الوحيدة التي قد تشي بها هي آثار البصمات ورائحة العرق غير المرئية المتبقية في الورقة ، ولكن احتمال إجراء أي نوع من هذه الاختبارات هو ضئيل إلى أدنى الحدود دون شك . ويمكن لأي خبير خطوط ، إذا ما استدعي للإدلاء بشهادته ، أن يقسم بأن الوثيقة موضع البحث مكتوبة بيد وبخط رئيس المحفوظات ، وأنها

أصلية كما لو أنها كُتبت في حضور شهود مؤهلين . كما أن الصياغة المتكلفة ، وأسلوبها ، والمفردات المستخدمة فيها يمكن لها أن تضيف بدورها عالم نفسٍ ، يعزز تقرير الزميل العزيز ، ويثبت إلى حد الإشباع بأن كاتبها هو شخص متسلط إلى أقصى الحدود ، ذو طبع صارم ، دون مرونة ولا شروخ ، واثق من صواب رأيه ،مزدرٍ للرأي الآخر ، وهو ما يمكن لطفل أن يستخلصه بسهولة من قراءة النص الذي يقول ما يلي ، باسم الصلاحيات الممنوحة لي والتي أقسمت على تحملها وتطبيقها والدفاع عنها ، وبصفتي مدير هذه المحفوظات العامة للسجل المدني ، أحيط الجميع علماً ،عسكريين أو مدنيين ، عامين أو خاصين ، ممن يرون ، ويقرؤون ، ويراجعون هذا التكليف المكتوب والموقع بيدي وخطي ، بأن فلان الفلاني ، الذي يعمل كاتباً تحت أمرتي في المحفوظات العامة التي أترأسها ، وأحكمها وأديرها ، قد تلقى مني مباشرة الأمر والتكليف بتحري واستنفاد كل ما له علاقة بالحياة الماضية والحاضرة والمستقبلية لفلانة الفلانية ، المولودة في هذه المدينة ، في يوم كذا من شهر كذا ، ابنة بيلترانو كذا وثوتانا كذا ، ويتوجب بالتالي أن يُعترف له ، دون إثباتات أخرى ، وخلال الوقت الذي يستغرقه التحقيق ، بالصلاحيات المطلقة التي أفوضها لشخصه ، في هذا السبيل ومن أجل هذه القضية. للتنفيذ وفق ما تستدعيه مقتضيات الخدمة الوقائية وتقرره مشيئتي . سيرتجف من الخوف المخلوق الذي سيتمكن بمشقة من قراءة الورقة شديدة الوقع ، وسيهرع للاحتماء في حضن أمه ، متسائلاً كيف أمكن لكاتب مثل دون جوزيه هذا ، ذي الطبع المسالم ، والعادات الرشيدة ، أن يكون قادراً على أن يتصور ، يتخيل ، يختلق في رأسه التعبير عن السلطة المطلقة بمثل تلك الدقة ، وهذا أقل ما يمكن أن يقال في الأمر ، دون أن يكون لديه نموذج مسبق يسترشد به ، ذلك أنه ليس من المعمول به ولم تكن ثمة ضرورات فنية لأن تقدم المحفوظات العامة يوماً وثيقة تكليف .

وسيكون على ذلك المخلوق الخائف أن يأكل الكثير من الخبز والكثير من الملح قبل أن يبدأ بفهم الحياة ، وعندئذ لن يفاجأ حين يكتشف ، عندما تحين الفرصة ، كيف يمكن حتى للطيبين أن يتحولوا إلى متصلبين ومتجبرين ، وإن يكن ذلك بكتابة وثيقة تكليف ، مزورة أو غير مزورة . سيقولون على سبيل الاعتذار ، الواقع أنني لم أكن أنا نفسي ، بل كنت أكتب ، أو أتصرف باسم شخص آخر ، ويكون ما يريدونه في أفضل الحالات هو خداع أنفسهم ، لأن التصلب والتجبر ، هذا إن لم نقل القسوة ، كانت في الحقيقة تتبدى في داخلهم ، وليس في شخص آخر، مرئية أو غير مرئية . ومع ذلك ، وبتقدير ما جرى حتى الآن بآثاره ، فإن الاحتمال ضئيل بأن تؤدي نوايا وأعمال دون جوزيه المستقبلية إلى إلحاق أضرار جدية بالعالم ، ولهذا سنترك حكمنا معلقاً بصورة مؤقتة، طالما لم تتكفل أفعال أخرى أكثر كشفاً ، سواء بالمعنى الطيب أو المعنى الخبيث ، برسم صورته النهائية .

لبس يوم السبت أفضل بدلة لديه ، وقميصاً نظيفاً ومكوياً ، وربطة عنق مضبوطة إلى حد ما ، تتناسب تقريباً مع لون البدلة ، وخبأ في جيب الجاكيت الداخلي المغلف المدموغ وفيه كتاب التكليف ، ركب دون جوزيه سيارة أجرة من باب بيته ، ليس من أجل كسب الوقت ، فاليوم عطلة وهو له بالكامل ، وإنما لأن الغيوم كانت تنذر بهطول مطر ، ولم يشأ الظهور أمام سيدة الشقة اليمنى في الطابق فوق الأرضي وهو يقطر من أذنيه، وثنيات بنطاله ملطخة بالوحل ، مجازفاً بذلك بأن تصفق الباب في وجهه قبل أن يتمكن من عرض سبب مجيئه . كان يشعر بالاستثارة وهو يتصور كيف ستستقبله السيدة المسنة ، والتأثير الذي ستُحدثه في العجوز ، وردت لفظة "العجوز" التحقيرية إلى ذهنه دون أن يفكر فيها، قراءة ورقة مثل تلك ، المُنذرة والمخيفة ، هناك أشخاص يكون رد فعلهم عكس ما هو متوقع ، فعسى أن تكون الحالة على هذا النحو . ربما استخدم

في تحرير الوثيقة ألفاظاً مفرطة في الصلابة والتجبر ، ولكن الرؤية الاحتمالية تفرض عليه مع ذلك أن يكون وفياً لطباع المدير كوفائه للخط ، أضف إلى ذلك أن الجميع يعرفون بأنه من الصحيح تماماً أن اقتناص الذباب لا يتم بالخل ، ولكن ما لا يقل صحة عن ذلك هو أن بعض الذباب لا يسمح باقتناصه حتى بالعسل . فتنهد ، سنرى . كان أول ما تمكن من رؤيته ، بعد أن أجاب على الأسئلة المُلّحة التي أتته من الداخل ، من أنت ، ماذا تريد ، من أرسلك ، ما علاقتي أنا بهذا ، هو أن سيدة الشقة اليمنى في الطابق فوق الأرضي ليست كبيرة السن مثلما كان قد تصورها ، لم تكن تينك العينان عيني مسنة ، ولا ذلك الأنف المستقيم ، ولا ذلك الفم النحيل إنما الثابت ، ودون تجعدات في جانبيه، المكان الذي يُلحظ فيه التقدم في السن هو ترهل جلد الرقبة ، وربما دقق في هذا التفصيل بالذات لأنه كان قد بدأ يلاحظ في عنقه بالذات هذه العلامة المؤكدة للتردي الجسدي مع أنه لم يتجاوز الخمسين . لم تفتح السيدة الباب بالكامل ، وكانت تقول وتعاود القول إنها لا تحفل بأمور الجيران ، وهي من أكثر الإجابات تعقلاً ، خصوصاً وأن دون جوزيه ، متبعاً طريقاً خاطئاً ، بدأ بالإعلان عن أنه يبحث عن شخص من الشقة اليسرى في الطابق الثاني . وبدا أن اللبس قد زال عندما ذكر أخيراً اسم المرأة المجهولة ، فقد انفتح الباب عندئذ أكثر قليلاً ، لكي يعود بعد ذلك إلى وضعه السابق ، هل تعرفين هذه السيدة ، سألها دون جوزيه ، فقالت المرأة ، أجل ، كنتُ أعرفها ، أود أن أوجه إليك بعض الأسئلة عنها ، ومن تكون حضرتك ، إنني موظف مخول من المحفوظات العامة للسجل المدني ، وقد قلتُ لك ذلك من قبل ، وكيف يمكنني أن أعرف أن هذا صحيح ، لدي تكليف موقع من مديري ، إنني في بيتي ، ولا أريد لأحد أن يزعجني ، أنتِ مضطرة في مثل هذه الحالات إلى التعاون مع المحفوظات العامة ، أية حالات ، توضيح بعض الالتباسات الموجودة في السجل

المدني ، ولماذا لا تسألونها هي ، لأننا لا نعرف عنوانها الحالي ، فإذا كنتِ تعرفينه ، أعطيني إياه ولن أزعجك أكثر ، منذ ثلاثين سنة ، إذا لم تخني الذاكرة ،لم أتلق أي معلومات عن هذه المخلوقة ،وكانت عندئذ طفلة ، أجل . بهذه الكلمة الوحيدة أوحت المرأة بما يشير إلى أنها تعتبر المحادثة منتهية ، ولكن دون جوزيه لم يستسلم ، إذا كان عليه أن يخسر المئة، فماذا يهمه لو خسر الألف . أخرج المغلف من جيبه ،فتحه وسحب منه التكليف ، ببطء لا بد أنه بدا متوعداً ، وأمرها ، اقرئي . هزت المرأة رأسها ، لن أقرأه ، فالمسألة لا تعنيني ، إذا أنتِ لم تقرئيه ،فسوف أرجع برفقة الشرطة ، وسيكون ذلك أسوأ لحضرتك . أذعنت المرأة لتسلم الورقة التي قدمها إليها ، أضاءت نور الممر ، ووضعت على عينيها نظارة كانت تعلقها في عنقها وقرأت . ثم أعادت الوثيقة بعد ذلك وفتحت له طريق الدخول ، من الأفضل أن تتفضل بالدخول ،فلا بد أن من يقطنون الشقة المقابلة يتنصتون علينا من وراء الباب . وحيال التحالف غير المعلن الذي بدا أن استخدام الضمير الشخصي يمثله ، أدرك دون جوزيه أنه قد كسب المبارزة . وقد كان هذا الانتصار ، بطريقة ما غير محددة ، هو الانتصار الموضوعي الأول في حياته ، صحيح أنه انتصار احتيالي ، ولكن إذا كان هناك أناس كثيرون يعلنون أن الغاية تبرر الوسيلة ، فمن يكون هو حتى يفند ذلك ويكذبهم . دخل دون تفاخر ،مثل منتصر تمنعه شهامته من التنازل للإغواء السهل بإذلال المهزوم ، مع أنه كان يُقدَّر أن عظمته ، على أي حال ، كانت ملحوظة .

قادته المرأة إلى صالة صغيرة مرتبة بعناية ونظيفة ، ذات ديكور من زمن آخر . قدمت له كنبة ، وجلست هي أيضاً بدورها ، وقالت دون أن تتيح للزائر الوقت لتوجيه أسئلة أخرى ، إنني عرابتها . كان دون جوزيه يتوقع سماع كل شيء باستثناء هذا الكشف . كان هناك كموظف بسيط ينفذ أوامر رؤسائه ، وبالتالي دون أي متطلبات ذات طبيعة شخصية،

فهكذا يجب أن تراه المرأة الجالسة قبالته ، ولكنه هو وحده كان يعرف مقدار الجهد الذي بذله لكي يمنع نفسه من الابتسام بلذة راضية . أخرج من جيبٍ آخر نسخة البطاقة ، ونظر إليها ببطء ، وكأنه سيحفظ في ذاكرته كل الأسماء التي تتضمنها ، ثم قال بعد ذلك ، وهل كان زوجك هو العراب ، أجل ، هل يمكنني التحدث إليه أيضاً ، إنني أرملة ، آه ، وكان في هذا الهتاف الأصم من الراحة الحقيقية بقدر ما فيه من الحزن المتكلف ، فها قد نقص شخص آخر ممن يتوجب عليه مقارعتهم . قالت المرأة ، لقد كانت علاقتنا جيدة ، أعني الأسرتين ، أسرتنا وأسرتها ، كنا أصدقاء حميمين ، وعندما ولدت الطفلة طلبوا منا أن نكون عرابيها ، وكم كان عمر الطفلة عندما انتقلوا من البيت ، أظنها كانت تقترب من الثامنة ، كنتِ قد قلتِ لي من قبل إنك لم تعرفي أخباراً عنها منذ ثلاثين سنة ، وهو كذلك ، أفصحي أكثر ، لقد تلقيتُ رسالة بعد انتقالهم بوقت قصير ، ممن تلقيتها ، من الطفلة ، وماذا تقول الرسالة ، لا شيء خاصاً ، فقد كانت رسالة من طفلة في الثامنة ، بالكلمات القليلة التي تعرفها ، والتي تستطيع كتابتها إلى عرابتها ، أمازلتِ تحتفظين بالرسالة ، لا ، وماذا عن الوالدين ، ألم يكتبا إليك قط ، لا ، أليس ذلك غريباً ، لا ، لماذا ، إنها شؤون خاصة ، ليست لنشرها على الملأ ، ليست هناك شؤون خاصة تخفى عن المحفوظات العامة للسجل المدني . نظرت إليه المرأة بتمعن ، من أنتَ ، لقد أطلعتُكِ على التكليف بالمهمة للتو ، أطلعتني على اسمك فقط ، أنت دون جوزيه ، أجل ، أنا دون جوزيه ، إنكَ توجه إليّ ما تشاء من الأسئلة ، بينما لا أستطيع أنا أن أوجه إليك أي سؤال ، من أجل استجوابي أنا ، لا يمكن أن يفعل ذلك إلا موظف أعلى مني مرتبة في المحفوظات العامة ، أنتَ شخص سعيد ، يمكنك الحفاظ على أسرارك ، لا أعتقد بأنه يمكن لشخص أن يكون سعيداً لمجرد أنه يحتفظ بأسرار ، ألَستَ سعيد ، ليس مهماً ما أنا عليه ، فقد أوضحتُ لكِ من قبل بأن المراتب الوظيفية الأعلى هي وحدها المخولة باستجوابي ، هل لديكَ أسرار ،

لن أجيبُكِ ،أما أنا فيتوجب عليّ أن أجيبكَ ،من الأفضل لكِ أن تفعلي ، ماذا تريدني أن أقول لك ، ما هي تلك الشؤون الخاصة . مرّت المرأة بيدها على جبهتها ، وتركت جفونها الذاوية تنسدل ببطء ، ثم قالت بعد ذلك دون أن تفتح عينيها ،كانت أمها تشك بأنني على علاقة حميمة مع زوجها ، وهل كان ذلك صحيحاً ، كان صحيحاً ، ومنذ وقت طويل سابق ، ألهذا السبب رحلوا ، أجل . ثم فتحت المرأة عينيها وسألت ، أتعجبك أسراري ، لا يهمني منها إلا ما له علاقة بالشخص الذي أبحث عنه ، كما أنني غير مخول بأية أشياء أخرى ، أنتَ لا تريد أن تعرف إذن ما الذي حدث بعد ذلك ، بصورة رسمية لا ، ولكنك ربما أردت أن تعرف ، بصورة خاصة ، ليس من أساليبي التجسس على حياة الآخرين ، قال دون جوزيه ذلك ، متناسياً المئة وبضعاً وأربعين حياة التي يحتفظ بها في خزانته ،ثم أضاف ، ولكنني لا أظن بأن شيئاً استثنائياً جداً قد حدث لكِ ،خصوصاً وأنك قلتِ لي إنك أرملة ، لديكَ ذاكرة جيدة ، إنه شرط أساسي ليكون المرء موظفاً في المحفوظات العامة للسجل المدني ، فرئيسي على سبيل المثال ، وهذا لكي تتكوّن لديكِ فكرة فقط ، يعرف عن ظهر قلب كل الأسماء الموجودة والتي ستوجد ، كل الأسماء وكل الكنى ، وبماذا يفيد ذلك ، إن دماغ مدير المحفوظات هو مثل نسخة أخرى من المحفوظات ، لست أفهمكَ ، بما أن دماغ رئيسي قادر على تحقيق كل التوليفات المحتملة للأسماء والكنى ، فإنه لا يعرف أسماء كل الأشخاص الأحياء وكل الموتى وحسب ، وإنما يمكنه كذلك أن يخبرك كيف سيسمى كل الذين سيولدون منذ الآن وحتى نهاية الدنيا ، أنتَ تعرف أكثر من رئيسك ، ولا بأي حال ، فأنا لا أساوي شيئاً بالمقارنة معه ، ولهذا هو مدير وأنا لستُ إلا مجرد كاتب عادي ، كلاكما يعرف اسمي ، هذا صحيح ، ولكنه لا يعرف عني أكثر من اسمي ، معكِ حق في هذا ، والفرق يكمن في أنه كان يعرفه من قبل ، أما أنا فعرفته عندما تلقيت التكليف بهذه المهمة ، وبقفزة واحدة تقدمتَ عليه ،فأنتَ هنا ، في بيتي ، يمكنكَ رؤية وجهي ، وسماعي وأنا أقول إنني قد خنتُ زوجي ، وأنتَ الشخص الوحيد الذي أخبره بذلك ، خلال كل هذه السنوات ، فما الذي تحتاجه أكثر من

هذا لتقتنع بأن رئيسك ليس أكثر من جاهل بالمقارنة معكَ ، لا تقولي هذا ، فهو غير لائق ، هل لديك أي سؤال آخر ، أي سؤال تعنين ، إذا ما كنتُ سعيدة مثلاً في زواجي بعد الذي حدث ، هذا موضوع غير مرتبط بالملف ، ليس هناك ما هو غير مرتبط ، فمثلما توجد كل الأسماء في رأس رئيسك ، فإن ملف أي شخص هو ملف الجميع ، أنتِ تعرفين الكثير ، هذا طبيعي ، فقد عشتُ كثيراً ، أنا لي من العمر خمسون سنة ، ولستُ أعرف شيئاً بالمقارنة معكِ ، لا يمكنكَ أن تتصور ما الذي يمكن تعلمه بين سن الخمسين والسبعين ، أهذا هو عمركِ ، بل أكثر قليلاً ،هل كنتِ سعيدةً بعد الذي حدث ، هذا يعني أنكَ مهتم بذلك ، لأنني لا أعرف إلا القليل عن حياة الأشخاص ، مثلما هو حال رئيسك ، ومثلما هي محفوظاتك ، أفترضُ ذلك ، لقد تلقيتُ الصفح ، إذا كان هذا ما تود معرفته ، تلقيتِ الصفح ، أجل ، وهو ما يحدث بكثرة ، اصفحوا بعضكم عن بعض ، مثلما يقال عادة ، العبارة المشهورة ليست هكذا ، بل أحبوا بعضكم بعضاً . الأمر سيان ، فمن يصفح يحب ، ومن يحب يصفح ، أنتَ ما زلتَ صبياً ، وما زال أمامك الكثير لتتعلمه ، أرى أنك على حق ، هل أنتَ متزوج ، لا ، ألم تعش مع امرأة قط ، عيش ، بما تعنيه كلمة عيش ، لم أعش ، أقمتَ علاقات عابرة ، آنية فقط ، ولا هذه ، فأنا أعيش وحيداً ، وعندما تضغط عليّ الحاجة ، أفعل ما يفعله الجميع ، أبحثُ وأدفع ، هل لاحظتَ أنك تجيب على أسئلة ، أجل ، ولكن ذلك لم يعد يهمني الآن ، ربما كانت هذه هي الطريقة للتعلم ، بالإجابة ، سأوضح لكَ أمراً ، ما هو ، سأبدأ بسؤالك إذا ما كنتَ تعرف كم شخصاً يشكّلون الزواج ، اثنان ، الرجل والمرأة ، لا يا سيدي ، هناك في الزواج ثلاثة أشخاص ، هناك المرأة ، وهناك الرجل ، وهناك ما أدعوه الشخص الثالث ، وهو الأهم ، الشخص الذي يتشكل من الرجل والمرأة معاً ، لم أفكر في ذلك قط ، إذا ما ارتكب أحد الاثنين الزنا ، مثلاً ،فإن أشدهما استياء ، من يتلقى أقسى ضربة ، مهما بدا ذلك غير معقول ، ليس الآخر ، وإنما ذلك الآخر الذي هو الاثنان ، إنه ليس واحداً ، وإنما هو اتحاد الاثنين ، وهل يمكن العيش حقاً مع هذا الواحد المكون من اثنين ، فأنا أجد مشقة في العيش حتى مع نفسي

بالذات ، أكثر ما هو شائع في الزواج هو رؤية الرجل أو المرأة ، أو كليهما ، وكل واحد يريد من جانبه تحطيم هذا الثالث الذي هو هما ، هذا الذي يصمد ، هذا الذي يريد البقاء على قيد الحياة كيفما اتفق ، هذه مسألة حسابية شديدة التعقيد بالنسبة لمداركي ، تزوج ، اعثر لك على امرأة وبعد ذلك أخبرني ، لقد انقضى الزمن بالنسبة لي ، من الأفضل ألا تراهن على ذلك ، فمن يدري ما الذي ستجده عندما تصل إلى نهاية مهمتك أو ما شئت أن تسميها ، الشكوك التي أرسلوني للكشف عنها هي شكوك تخص المحفوظات العامة ، وليست تهمني شخصياً ،وما هي تلك الشكوك ، إذا كنتُ لا أثقل عليكَ بأسئلتي ، إنني ملتزم بالتكتم على السر الرسمي ، لا يمكنني الإجابة ، السر لا يفيدك إلا قليلاً يا دون جوزيه ، فالآن سيكون عليكَ أن تغادر ، وسوف تغادر وأنت لا تعرف إلا ما كنتَ تعرفه عند دخولك ، لا شيء ، هذا الذي تقولينه صحيح ، وهز دون جوزيه رأسه محبطاً.

نظرت إليه المرأة كما لو أنها تدرسه ، ثم سألته ، منذ متى بدأتَ السير في هذا التحقيق ، بالنسبة لي ، بدأتُ اليوم ، ولكن المدير سيغضب كثيراً عندما سأعود إليه صفر اليدين ، أنه شخص شديد التململ ، سيكون ظلماً فادحاً بحق موظف لا يتمتع ، كما أرى ، بالاستراحة من العمل أيام السبت ، لم يكن لدي أي شيء خاص أفعله ، وكانت هذه وسيلة للتقدم في المهمة ، ولكنك لم تحقق تقدماً يذكر ، أليس كذلك يا سيدي ، يتوجب عليّ أن أفكر ، أطلب النصيحة من رئيسك ، فلهذا هو رئيس ، أنتِ لا تعرفينه ، فهو لا يتقبل توجيه الأسئلة إليه ، إنه يُصدر الأوامر وكفى ، وماذا ستفعل الآن ، لقد قلت لكِ ، يجب عليّ أن أفكر ، فكر إذن ، هل صحيح أنكِ لا تعرفين شيئاً ، إلى أين ذهبوا عندما رحلوا من هنا ، لا بد أن الرسالة التي تلقيتِها كانت تحمل عنوان من أرسلها، أجل ، لا بد أنها تحمل العنوان ، ولكن تلك الرسالة لم تعد موجودة ، ألم تردي عليها ، لا ، لماذا ، في الخيار بين القتل والاستسلام للموت ، فضلتُ القتل ، إنني أتكلم بالمعنى المجازي بالطبع ، إنني في طريق مسدود ، ربما لستَ كذلك ،ماذا تعنين ، أعطني ورقة وشيئاً يكتب .قدم لها دون

جوزيه بيدين مرتعشتين قلم رصاص ، يمكنك أن تكتبي هنا بالذات ، على قفا البطاقة ، في نسخة مستنسخة . وضعت المرأة النظارة ، وكتبت بعض الكلمات بسرعة ، ها هو ، ولكنه ليس عنوانها ، إنه فقط اسم الشارع حيث كانت المدرسة التي ترتادها ابنتي في العماد بعد انتقالهم ، ربما تتمكن من هناك الوصول إلى حيث تشاء ، إذا كانت المدرسة ما تزال هناك . وجدت روح دون جوزيه نفسها منقسمة بين الامتنان الشخصي للجميل والضيق الرسمي لأنها ماطلت طويلاً .صرّف الامتنان قائلاً، شكراً ، دون أي إضافة أخرى ، ثم قال بنبرة معتدلة ، ولكنه سمح لضيقه بأن يظهر فيها ، لا يمكنني أن أفهم سبب تأخرك كل هذا الوقت في إعطائي عنوان المدرسة ، مع أنكِ تعلمين بأنه يمكن لأي معلومة ،مهما بدت تافهة ، أن تكون ذات أهمية حيوية بالنسبة لي ، لا تبالغ كثيراً، على الرغم من كل شيء ، أنا ممتن لك كثيراً وأقول هذا باسمي وباسم المحفوظات العامة للسجل المدني التي أمثلها ، ولكنني ألح على أن توضحي لي سبب تأخرك طويلاً في إعطائي العنوان ، السبب بسيط جداً ، لأنه ليس لدي من أتبادل الحديث معه .نظر دون جوزيه إلى المرأة ، وكانت هي تنظر إليه ، ليس ثمة مبرر لهدر الكلمات في تفسير التعبير الذي كان في عيني أحدهما وعيني الآخر ، والمهم فقط هو ما استطاع أن يقوله بعد صمت طويل ، وأنا أيضاً . عندئذ نهضت المرأة عن المقعد ، وبحثت في أحد أدراج الصيوان الذي كان وراءها وأخرجت منه ما يشبه الألبوم ، إنها صور ، فكر في ذلك دون جوزيه مبتهجاً .فتحت المرأة الكتاب ، تصفحته ، وخلال ثوان قليلة وجدت ما تريده ، لم تكن الصورة ملصقة ، بل كانت مثبتة بأربع زوايا ورقية صغيرة ملصقة على الصفحة ، قالت ، ها هي ، خذها ، هذه هي الصورة الوحيدة لها التي أحتفظ بها ، وآمل ألا تسألني الآن أيضاً عما إذا كانت لدي صور لأبويها .لن أسألكِ .مدّ دون جوزيه يده المترددة ، تلقى صورة بالأبيض والأسود لطفلة في الثامنة أو التاسعة من عمرها ، لها وجه يجب أن يكون شاحباً، وعينان جديتان تحت خصلة شعر تلامس الحاجبين ، وفم بقي هكذا لأنه كان يهمُّ بالابتسام ولم يستطع . قلب حساس ، وأحس دون جوزيه

بعينيه تفيضان بالدموع ، لا يبدو عليك أنك موظف في المحفوظات ، قالت المرأة ، إنه الشيء الوحيد الذي أنا عليه ، قال هو ، أترغب في فنجان من القهوة ، سيكون جيداً.

تحادثا قليلاً بينما هما يشربان القهوة ويقضمان قطعة البسكويت ، بضع كلمات فقط تبادلاها حول السرعة التي ينقضي بها الزمن اللعين . يمضي ، ولا نكاد ننتبه إليه ، منذ قليل كان الصباح ، وها هو ذا الليل يوشك أن يحلّ الآن ، كان يُلاحَظ في الواقع أن المساء آخذ بالاقتراب أخيراً ، ولكنهما ربما كانا يتحدثان عن الحياة ، عن حياتيهما ، أو عن الحياة عموماً ، هذا ما يحدث عندما نحضر محادثة ولا نكون منتبهين ، فيفلت منا على الدوام أهم ما يقال . انتهت القهوة ، وكانت الكلمات قد انتهت ، فنهض دون جوزيه وقال ، يجب أن أنصرف ، شكرها على الصورة ، وعلى عنوان المدرسة ، فقالت المرأة ، إذا ما مررت يوماً بهذه المنطقة ، ثم رافقته حتى الباب ، مدّ يده ، وعاد للقول ، شكراً جزيلاً ، ومثل فارس من عصر آخر قربها من شفتيه ، عندئذ ابتسمت المرأة بخبث وقالت ، ربما لا يكون البحث في دليل الهاتف بالفكرة السيئة .



كانت الصدمة قاسية جداً إلى حدّ أن دون جوزيه ، بينما هو يطأ الشارع بقدميه المضطربتين ، تأخر في الانتباه إلى أن مطراً خفيفاً ،شبه شفاف ، من تلك الأمطار التي تبلل في اتجاه عمودي وفي اتجاه أفقي ، إضافة إلى جميع الميول الأخرى ، يهطل عليه . ربما لا يكون النظر في دليل الهاتف بالفكرة السيئة ،قالت العجوز بخبث لدى الوداع ، وكل كلمة من هذه الكلمات ، التي تبدو بريئة بذاتها ، ولا يمكن لها أن تُغضب أشد المخلوقات حساسية ، تحولت في لحظة واحدة إلى شتيمة عدوانية ، إلى شهادة بلاهة لا تطاق ، كما لو أنها خلال المحادثة ، بالغة الغنى بالمشاعر منذ لحظة معينة ، كانت تراقبه ببرود ، لكي تنهي بأن الموظف الأخرق المرسل من المحفوظات العامة للسجل المدني للبحث عما هو بعيد وخفي ، كان عاجزاً عن رؤية ما هو أمام عينيه وفي متناول يده . تلقى دون جوزيه ، وهو بلا قبعة ولا مظلة ، رذاذ المطر على وجهه مباشرة ، كان الرذاذ دوارياً ومختلطاً مثل الأفكار المزعجة التي تروح وتجيء في رأسه ،وكلها تدور ، مثلما بدأ يلاحظ سريعاً ،حول نقطة مركزية محددة ، راحت تصبح شيئاً فشيئاً أكثر صفاء . صحيح أنه لم يخطر له أمر شديد البساطة واليومية مثل استشارة دليل الهاتف ، وهو الشيء المعهود عندما يريد أحد معرفة رقم أو عنوان شخص يكون الهاتف مسجلاً باسمه .وكان لا بد أن يكون هذا هو أول عمل

يقوم به ، إذا أراد أن يتحرى مستقر المرأة المجهولة ، وفي أقل من دقيقة سيعرف أين يجدها ، وبعد ذلك ، بحجة استيضاح شكوك التسجيل في السجل المدني ، يمكنه أن يرتب معها لقاء خارج المحفوظات ، متذرعاً بأنه يريد أن يوفر عليها دفع رسوم مالية مثلاً ، وبعد ذلك ، سيجازف بكل شيء في إيماءة جريئة ، في اليوم نفسه أو بعد عدة أيام ، حين تتولد بينهما الثقة ، ويطلب منها ، قصي عليّ حياتك . لم يتصرف على هذا النحو ، وقد بدأ الآن ، بالرغم من جهله بفنون علم النفس وخفايا العقل الباطن ، يدرك السبب بصورة تقريبية . فلنتصور صياداً ،كان دون جوزيه يمضي وهو يقول ذلك لنفسه ، فلنتصور صياداً أعدّ أدواته بكل عناية ، البندقية ، جعبة الطلقات ، كيس الطعام ، زمزمية الماء ، الكيس الشبكي الذي سيجمع فيه صيده ، حزمة البرية ، ولنتصوره خارجاً مع كلابه ، مصمماً ،مفعماً بالحماس ، متأهباً ليوم طويل مثلما هي الحال في مغامرات القنص ، ولكنه ما إن ينعطف عند الناصية التالية ، وهو ما يزال إلى جوار بيته ، حتى يخرج له سرب من الحجل مستسلماً له ليقتله ، يطير ولكنه لا يبتعد من هناك مهما جندل الرصاص منه ، كهدية ومفاجأة للكلاب التي لم تر في حياتها قط سقوط المن من السماء بمثل تلك الكميات . ما الذي ستكونه ، بالنسبة إلى الصياد ، متعة صيد بهذه السهولة ، تُقدم فيه طيور الحجل نفسها ، بهذا المعنى تماماً، لفوهات البنادق ، تساءل دون جوزيه ، وقدم الجواب الذي يبدو جلياً لأي شخص ، لا توجد أي متعة . وهو ما يحدث لي ، أضاف ، يجب أن يكون في رأسي ، وبكل تأكيد في رؤوس الجميع ، فكر حقيقي يفكر لحسابه الخاص ، ويقرر دون مشاركة الفكر الآخر ، ذاك الذي نعرفه منذ أن نعرف أنفسنا والذي نعامله دون تكليف ، ذاك الذي يسلم قياده ليحملنا إلى حيث نعتقد ونحن واعون أننا نود الذهاب ، مع أنه يمكن ، في نهاية المطاف ، أن يُقتاد هذا عبر طريق آخر ،في اتجاه آخر ، وليس إلى أقرب منعطف ، حيث ينتظرنا سرب من الحجل دون أن يعلم ، ولكننا نحن نعلم ، في النهاية ، بأن

ما يعطي معنى حقيقياً للقاء هو البحث وأنه لا بد من السير كثيراً من أجل بلوغ ما هو قريب . وضوح التفكير ،سواء أكان هذا أم ذاك ، الخاص أو المعهود ، بعد الوصول لا يعود مهماً في الحقيقة مثل أهمية كيفية الوصول ، كان ذلك مبهراً إلى حد أن دون جوزيه توقف مذهولاً في وسط الرصيف ، يلفه الرذاذ الضبابي وضوء مصباح الأنوار العامة الذي أضيء مصادفة في تلك اللحظة بالذات . عندئذ ، ومن أعماق روحه الحزينة والممتنة ، ندم على الأفكار الخبيثة وغير الجديرة ، وكانت واعية جداً ، التي أطلقها على السيدة مديدة العمر والعطوفة ساكنة الشقة اليمنى من الطابق فوق الأرضي ، بينما هو مدين لها في الواقع ، ليس فقط بعنوان المدرسة وبالصورة ، وإنما كذلك بأكمل تفسير وأكثره وضوحاً لتصرف لم يكن يملكه ظاهرياً . وبما أنها تركت تلك الدعوة لزيارتها معلقة في الهواء ، إذا ما مررت يوماً من هذه المنطقة ، هكذا كانت كلماتها ، واضحة بما يكفي للتخلي عن بقية الجملة ، وعاهد نفسه أن يعود يوماً ويطرق بابها ، سواء لإطلاعها على ما حققه من تقدم في تحرياته أو ليفاجئها بالكشف عن السبب الحقيقي لرفضه الاستعانة بدليل الهاتف . وهذا يعني بالطبع أنه سيعترف لها بأن وثيقة التكليف كانت زائفة ، وأن تحرياته لم تكن بناء على أوامر من المحفوظات العامة، وإنما هي من بنات أفكاره ، ولن يجد مفراً من إخبارها بكل ما تبقى .وما تبقى هو مجموعته من الشخصيات المشهورة ، وخوفه من المرتفعات ، والأوراق المسودة ، وشباك العنكبوت ، وخزائن ملفات الأحياء الرتيبة، وفوضى خزائن الأموات ، والعفونة ، والغبار ، واليأس ، وأخيراً البطاقة التي خرجت لسبب ما ملتصقة بالبطاقات الأخرى ، حتى لا ينسوها ، والاسم ، اسم الطفلة التي أحملها هنا ، وتذكر الصورة ، ولم يمنعه من إخراجها من جيبه لينظر إليها سوى دوامات المطر التي كانت تواصل الهطول من السماء . إذا ما قرر يوماً أن يخبر شخصاً كيف هي المحفوظات العامة من الداخل ، فإن ذلك الشخص سيكون سيدة الشقة اليمنى من الطابق فوق

الأرضي . هذه مسألة سيتكفل الزمن بحلها ، هكذا قرر دون جوزيه . في هذه اللحظة بالذات أسعفه الزمن بمجيء الحافلة التي ستقله إلى مقربة من بيته ، وفيها أناس كثيرون مبللون ، رجال ونساء مختلفو الأعمار والهيئات ، بعضهم شباب وبعضهم شيوخ ، بعضهم قريب وبعضهم بعيد . المحفوظات العامة للسجل المدني تعرفهم جميعهم ، تعرف أسماءهم ، وأين ولدوا وممن ، تحصيهم وتحسم أيامهم واحداً فواحداً ،فتلك المرأة على سبيل المثال ، ذات العينين المطبقتين ، تلك التي تسند رأسها إلى زجاج النافذة ، يجب أن يكون عمرها خمساً وثلاثين ، ستاً وثلاثين سنة ، وكان ذلك كافياً لكي يمنح دون جوزيه أجنحة لمخيلته ، وماذا إذا كانت هي نفسها المرأة التي أبحث عنها ، مستحيل ، لا يمكن القول إنها هي ، فالحياة ملأى بالأشخاص المجهولين ، ولكن لا بد من الإذعان ، لا يمكننا أن نمضي متجولين نسأل الناس جميعهم ، ما اسمك ، ثم نخرج البطاقة من الجيب لنرى إذا ما كان ذلك الشخص هو الذي نريده . بعد محطتين نزلت المرأة ، وتوقفت بعد ذلك على الرصيف منتظرة أن تواصل الحافلة طريقها ، لا بد أنها تريد قطع الشارع ، ولأنها لم تكن تحمل مظلة ، فقد تمكن دون جوزيه من رؤية وجهها مواجهة بالرغم من قطرات المطر المتشبثة بزجاج النوافذ ، وكانت هناك لحظة ، ربما لأن صبرها نفد من تأخر الحافلة في الانطلاق ، رفعت فيها رأسها والتقت نظراتهما . وبقيا على تلك الحال إلى أن انطلقت الحافلة ، وواصلا ذلك طوال الوقت الذي يستطيعان رؤية كل منهما الآخر ، دون جوزيه يلتفت برقبته ويمطها ، والمرأة تتابع من الشارع الحركة ، وتساءلت هي صدفة ، مَن تراه يكون ، وأجاب هو بينه وبين نفسه ، إنها هي .

لم تكن المسافة بين موقف الحافلة التي يتوجب على دون جوزيه النزول فيه والمحفوظات العامة كبيرة ، وهي لفتة من خدمات النقل جديرة بالثناء ، من أجل التسهيل على الأشخاص الذين يحتاجون إلى تسوية معاملاتهم في المحفوظات العامة . ومع ذلك ، فقد دخل دون جوزيه إلى

بيته مبللاً من رأسه حتى قدميه . خلع سترته على عجل ، ونزع بنطاله وجوربيه وحذاءه ، وفرك شعره الذي يقطر ماء بمنشفة ، وكان يواصل حواره الداخلي بينما هو يفعل كل ذلك . إنها هي ، ليست هي ، يمكن أن تكون هي ، يمكن أن تكون ، ولكنها ليست هي ، وماذا لو كانت هي ، ستعرف ذلك عندما تعثر على صاحبة البطاقة ، وإذا كانت هي ، سأقول لها بأننا سبق والتقينا ، وبأننا رأينا بعضنا في حافلة ، لن تتذكر ، إذا لم أتأخر طويلاً في العثور عليها ، فسوف تتذكر بالتأكيد ، ولكنك لا تريد العثور عليها خلال وقت قصير ، وربما لا تريد ذلك خلال وقت طويل أيضاً ، لأنك لو كنت تريد العثور عليها لبحثت عن اسمها في دليل الهاتف ، فمن هناك يتوجب عليك أن تبدأ ، لم يخطر لي ذلك ، دليل الهاتف موجود هناك في الداخل ، ليست لدي رغبة الآن في الدخول إلى المحفوظات ، إنك تخاف من الظلام ، لستُ أشعر بأي خوف ، فأنا أعرف ذلك الظلام مثل راحة يدي ، خير لك أن تقول إنك لا تعرف حتى راحة يدك ، إذا كان هذا هو رأيك ، فدعني على جهلي ، فالعصافير أيضاً تغرد ولا تعرف لماذا تفعل ذلك ، إنك غنائي ، إنني حزين ، هذا طبيعي ، بهذه الحياة التي تعيشها ، تصور أن تكون امرأة الحافلة هي امرأة البطاقة الحقيقية ، وتصور أنني لن أعود للقاء بها ثانية ، وبأن تلك المرة هي الفرصة الوحيدة ، وبأن القدر كان هناك وتركته يمضي ، لديك طريقة واحدة فقط لإنقاذ الوضع ، وما هي ، أن تفعل ما قالته لك مستأجرة الشقة اليمنى من الطابق فوق الأرضي ، المرأة العجوز ، مزيداً من اللباقة فيما يتلفظ به لسانك ، أرجوك ، ولكنها عجوز ، إنها سيدة متقدمة في السن ، دعك من النفاق ، فجميعنا لدينا سننا ، والمسألة هي في معرفة كم من السن لنا ، فإذا كانت قليلة ، يكون المرء شاباً ، وإذا كانت كثيرة ، يكون عجوزاً ، وما سوى ذلك ليس إلا ثرثرة ، فلننته من هذا ، حسن ، فلننته ، سأنظر في الدليل ، هذا ما أقوله لك منذ نصف ساعة . دخل دون جوزيه

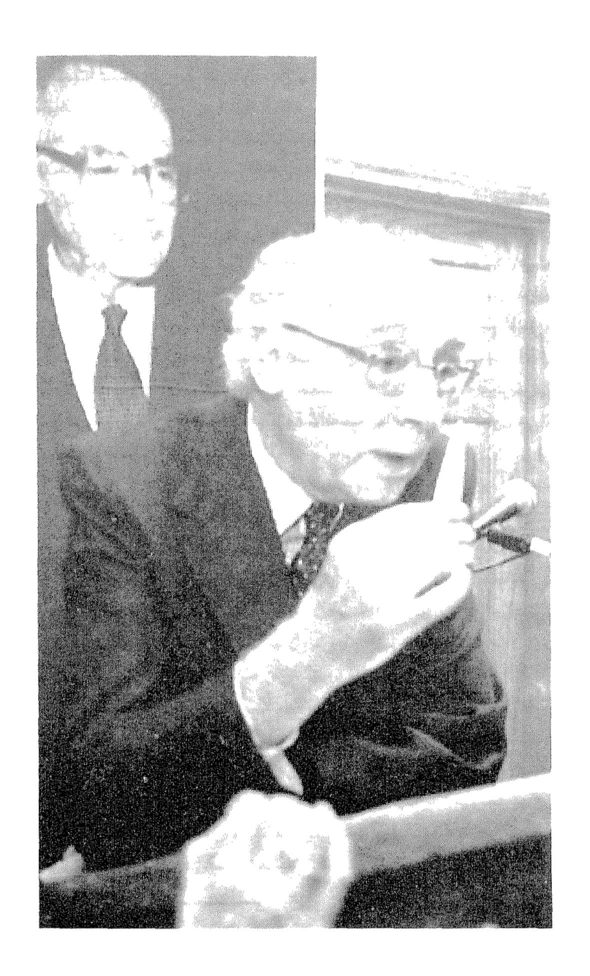
إلى المحفوظات بالبيجامة والخف ، متدثراً ببطانية . كانت تلك الملابس الغريبة تبعث فيه نوعاً من الاستياء ، كما لو أن في ذلك إساءة احترام للملفات الموقرة ، ذلك النور الأصفر السرمدي الذي يطفو ، مثل شمس محتضرة ، فوق منضدة المدير . كان دليل الهاتف هناك ، على أحد أركان المنضدة ، ولم يكن مسموحاً البحث فيه دون إذن ، حتى ولو تعلق الأمر بمكالمة رسمية ، وها هو ذا دون جوزيه يستطيع الآن ، مثلما فعل في السابق ، أن يجلس على المقعد ، صحيح أنه فعل ذلك مرة واحدة من قبل ، في لحظة فريدة بدت له لحظة انتصار ومجد ، ولكنه لم يتجرأ على الجلوس الآن ، ربما بسبب ملابسه غير اللائقة ، وخوفاً من أن يفاجئه أحد وهو بذلك المظهر ، ومن ذا الذي يمكنه أن يفاجئه ، ما دام لا يمكن لكائن حي ، باستثنائه هو ، أن يتواجد هناك خارج ساعات الخدمة . فكر في أنه سيكون من الأنسب أن يأخذ الدليل معه ، ففي البيت سيشعر بطمأنينة أكبر ، دون الحضور المتوعد للخزائن الشاهقة التي تبدو وكأنها تريد أن تتهاوى من أعالي عتمة السقف ، هناك حيث تنسج العناكب شباكها وتلتهم طرائدها . ارتعش كما لو أن الشّباك المغبرة واللزجة تهوي عليه ولولا قليل لارتكب هفوة تناول الدليل دون أن يكون قد احتاط مسبقاً بتقدير دقيق للمسافة التي تفصله ، من أعلى ومن الجانبين ، عن حواف المنضدة ، ومن يذكر الأبعاد سيذكر كذلك الزوايا ، هذا إذا لم ينتبه إلى أن الوضع المفضل لانحناءات المدير الهندسية والطوبوغرافية يميل بوضوح إلى الزوايا المستقيمة والخطوط المتوازية . دخل إلى البيت واثقاً من أنه بعد قليل ، عندما سيعيد دليل الهاتف إلى مكانه ، فإنه سيضعه في موضعه الدقيق بالضبط ، دون مليمتر واحد من الانحراف ، ولن يكون على المدير أن يأمر نائبي المدير بالتحقيق حول من الذي استخدم الدليل ، وكيف ، ومتى ، ولماذا . لقد كان ينتظر حتى اللحظة الأخيرة أن يحدث شيء يمنعه من حمل الدليل ، همسة ، فرقعة مريبة ، ضوء مفاجئ

يأتي من الأعماق الجنائزية للمحفوظات العامة ، ولكن السلام كان مطلقاً ، ولم يكن يُسمع حتى صوت فكوك الحشرات الضئيل وهي تنخر الخشب .

الآن يجلس دون جوزيه ، والبطانية فوق ظهره ، إلى منضدته الخاصة ، وأمامه دليل الهاتف ، يفتحه من بدايته ويماطل في استعراض تعليمات الاستخدام ، والرموز ، وقوائم تعرفة المكالمات ، كما لو أن هذا هو هدف بحثه . وبعد بضع دقائق ، يضطره دافع مفاجئ ، لم يفكر فيه ، إلى تجاوز الصفحات بسرعة ، نحو الأمام ، نحو الوراء ، إلى أن يتوقف في الصفحة التي يجب أن يكون فيها اسم المرأة المجهولة . إما أنها غير موجودة ، وإما أن عينيه تأبيان أن تريا . لا ، ليست موجودة . يجب أن تكون بعد هذا الاسم بالضبط وهي غير موجودة . يجب أن تكون قبل هذا الاسم وهي ليست كذلك . هذا ما كنتُ قد قلته ، فكر دون جوزيه ، ولم يكن صحيحاً أنه قال ذلك يوماً ، وإنما هي أساليب لجعل المرء نفسه على حق في مواجهة العالم ، للتفريج عن النفس ، وفي مثل هذه الحالة ، حالة النشوة ، كان يمكن لأي محقق شرطة أن يعبر عن معارضته بتوجيه ضربة من قبضته إلى المنضدة ، أما دون جوزيه فلم يفعل ذلك ، فقد أشهر دون جوزيه ابتسامة التهكم التي يبديها من يرجع ، بعد إيفاده للبحث عن شيء يعرف مسبقاً أنه غير موجود ، وعلى شفتيه عبارة ، لقد قلت لكم ذلك ، فإما أنها لا تملك هاتفاً أو أنها لا تريد أن يرد اسمها في الدليل . وقد بلغت سعادته حداً دفعه على الفور ، دون إضاعة الوقت في التفكير في الفوائد والمضار ، إلى البحث عن اسم والد المرأة المجهولة ، وكان هذا موجوداً . لم ترتعش شعرة واحدة في بدنه . بل على العكس ، فقد فكر الآن في إحراق كل الجسور وراءه ، يجرجره دافع لا يمكن أن يشعر به إلا الباحثون الحقيقيون ، بحث عن اسم الرجل الذي كانت المرأة المجهولة قد طُلقت منه ووجده أيضاً . لو كانت لديه هنا خريطة للمدينة ، لاستطاع أن يضع علامات تشير إلى النقاط الخمس الأولى التي تقصاها ،

اثنتان في الشارع الذي ولدت فيه طفلة الصورة ، وأخرى في المدرسة، وهاتان الاثنتان الآن ، بداية تصميم مثلما هو تصميم كل الحيوات ، مكوّن من خطوط منكسرة ، وصلبان ، وتقاطعات ، ولكن ليس من تفرعات على الإطلاق ، لأن الروح لا تذهب إلى أي اتجاه دون قدمي الجسد ، والجسد لا يمكنه التحرك إذا ما كان يفتقر لأجنحة الروح . دوّن ملاحظة عن المساكن ، ثم سجل ما يتوجب عليه أن يشتريه ، خريطة كبيرة للمدينة ، قطعة ورق مقوى سميكة بمثل حجم الخريطة لتثبيتها عليها ، علبة دبابيس ذات رؤوس ملونة ، حمراء لكي تظهر عن بُعد ،فالحيوات مثل لوحات الرسم ، ومن الأفضل النظر إليها دوماً عن بُعد أربع خطوات ، حتى ولو توصلنا في أحد الأيام إلى لمس بشرتها ، وشم رائحتها ، وتذوق طعمها . كان دون جوزيه مطمئناً ، لا يقلقه واقع أنه صار يعرف أين يقطن أبوا المرأة المجهولة وزوجها ، وهذا الأخير ، يا للفضول ، يقطن قريباً من المحفوظات العامة ، سيذهب بالطبع عاجلاً أو آجلاً ليطرق بابه ، ولكنه لن يفعل ذلك إلا عندما يشعر بأن الوقت قد حان ، عندما تتهيأ اللحظة المناسبة . أطبق دليل الهاتف ، وأعاده إلى منضدة الرئيس ، إلى المكان الدقيق الذي أخذه منه ، ورجع إلى البيت . كانت عقارب الساعة تشير إلى موعد العشاء ، ولكن لا بد أن انفعالات النهار قد ألهت معدته التي لم تعط ما يشير إلى نفاد صبرها . جلس مجدداً ، دثر جسده بالبطانية ، وشد أطرافها ليغطي ساقيه وتناول الدفتر الذي كان قد اشتراه من المكتبة . لقد حان الوقت للبدء بتدوين ملاحظات حول تقدم عملية البحث ، واللقاءات ، والمحادثات ، والتأملات ، وخطط وتكتيكات تحقيق يبدو أنه سيكون معقداً ، وفكر ، الخطوات التي يتبعها أحدٌ في البحث عن أحدٍ ، ومع أن العملية كانت في بدايتها في الحقيقة ، إلا أنه كان لديه الكثير ليرويه ، لو أنها كانت رواية ، تمتم بذلك وهو يفتح الدفتر ،فإن المحادثة مع سيدة الشقة اليمنى من الطابق فوق الأرضي وحدها ستكون فصلاً قائماً بذاته . تناول قلم الحبر ليبدأ ، ولكن في منتصف الحركة،

وجدت عيناه الورقة التي دون عليها العناوين ، كان يجول في ذهنه خاطر لم يفكر فيه من قبل ، فالاحتمال الأكبر هو أن تكون المرأة المجهولة قد ذهبت ، بعد طلاقها ، للعيش مع أبويها ، والاحتمال الممكن الآخر أن يكون الزوج هو من ترك المنزل ، مستبقياً الهاتف باسمه . فإذا كان هذا هو الحال ، وباعتبار أن البيت المذكور على مقربة من المحفوظات العامة ، فمن يدري إذا لم تكن امرأة الحافلة هي المرأة المجهولة نفسها. وظهرت دلائل على أن الحوار الداخلي سيتجدد ، إنها هي ، لم تكن هي ، بل هي ، ليست هي ، ولكن دون جوزيه تجاهل ذلك الحوار هذه المرة ، وانحنى على الورقة ، وبدأ يكتب أول الكلمات ، هكذا ، دخلتُ المبنى ، صعدتُ الدرج إلى الطابق الثاني وأصختُ السمع أمام باب البيت الذي ولدت فيه المرأة المجهولة ، وعندئذ سمعتُ بكاء طفل رضيع ، ففكرت في أنه قد يكون الابن ، وسمعتُ في الوقت نفسه تهديل امرأة ، أتكون هي ، وعرفت بعد ذلك أنها ليست هي .





على عكس ما يعتقده الناس على الدوام تقريباً ، عند النظر إلى الأمور من الخارج ، فإن الحياة في المؤسسات الرسمية ليست سهلة في العادة ، وخصوصاً في هذه المحفوظات العامة للسجل المدني ، التي تركزت فيها إلى أقصى الحدود ، منذ أزمنة لا يمكننا القول إن الذاكرة لا ترقى إليها ، لأن فيها سجلاً لكل شيء وكل شخص ، وبفضل الجهود الدؤوبة لسلسلة متواصلة من المديرين العظماء ، كل عظائم وصغائر الوظيفة العامة ، تلك التي تجعل من الموظف كائناً معزولاً ، متنفعاً وفي الوقت نفسه تابعاً للحيز الجسدي والذهني المحدود بالمدى الذي تبلغه ريشته . وبعبارات بسيطة ، وبالتطلع إلى تفهم أكثر دقة للوقائع العامة المقدرة بصورة مجردة في هذه الديباجة ،فإن ما لدى دون جوزيه هو مشكلة يجب حلّها . ولمعرفتنا كم كان مُكلِفاً له تجاوز الممانعات القانونية للمراتب الوظيفية العليا من أجل تغيب نصف الساعة تلك عن العمل ، والتي بفضلها تجنب أن يفاجئه متلبساً بالجرم المشهود زوج السيدة الشابة ساكنة الشقة اليسرى من الطابق الثاني ، يمكننا أن نتصور الكروب التي يعانيها الآن ، ليلاً ونهاراً ، وهو يحاول العثور على مبرر نافع يتيح له أن يطلب ، ليس ساعة واحدة ، وإنما ساعتين ، وليس ساعتين ، بل ثلاثاً ،ربما ستكون ضرورية لكي ينجز ، بالفائدة المرجوة ، زيارته إلى

المدرسة والتدقيق الذي لا مفر منه في أرشيفها . وسرعان ما تبدت آثار هذا القلق الثابت ، المتسلط على عقله ، في أخطاء في العمل ، وفي عدم الانتباه ، وفي إغفاءات نهارية مفاجئة سببها قلة النوم ليلاً ، وباختصار ، فإن دون جوزيه الذي كان يحظى حتى الآن بتقدير رؤسائه العديدين باعتباره موظفاً كفؤاً ، منهجياً ودؤوباً ، بدأ يتحوّل إلى هدف للتنبيهات القاسية ، والتحذيرات ، ولفت النظر ، التي لم تؤد إلا إلى زيادة اضطرابه أكثر فأكثر ، دون ذكر أنه ، في أثناء ذلك ، كان موقناً من أنه سيتلقى الرد السلبي إذا ما وصل به الأمر إلى طلب الإذن المنشودة . وقد بلغ الوضع تلك الحدود التي لم يعد معها من مفر ، بعد الدرس والمراجعة المتتالية التي قام بها المأمورون ونائبا المدير ، دون التوصل إلى نتائج ، سوى رفع الأمر إلى تقدير المدير نفسه الذي لم يتمكن ، في اللحظات الأولى ، أن يستوعب ما يحدث ، لشدة عبثيته . فإهمال موظف لواجباته إلى هذا الحد هو أمر يجعل من المستحيل ظهور أي ميل إلى الرحمة يمكن له أن يبرر قراراً بالتبرئة ، وهو أمر يسيء بصورة جدية لتقاليد عمل المحفوظات العامة ، أمر لا يمكن أن يبرره إلا الإصابة بمرض خطير . وكان هذا هو السؤال الذي وجهه المدير إلى دون جوزيه عند اقتياد المذنب للمثول في حضرته ، هل أنت مريض ، لا أظن ذلك يا سيدي ، إذا لم تكن مريضاً ، فكيف تفسر إذن سوء أدائك للعمل خلال الأيام الأخيرة ، لستُ أدري يا سيدي ، ربما لأنني أنام بصورة سيئة ، هذا يعني أنك مريض ، كل ما هنالك إنني أنام بصورة سيئة ، إذا كنتَ تنام بصورة سيئة ، فهذا يعني أنك مريض ، لأن الشخص السليم ينام دوماً بصورة جيدة ، اللهم إلا إذا كان هناك ما يُثقل على ضميرك ، خطيئة تستحق اللوم ، من تلك التي لا يغفرها الضمير ، فالضمير أمر مهم جداً ، أجل يا سيدي ، إذا ما كان قصورك في الخدمة ناجماً عن الأرق وكان الأرق ناجماً عن عذابات الضمير ، فلا بد لك إذن من الكشف عن الخطأ الذي ارتكبته . لم أرتكب

أي خطأ يا سيدي ، مستحيل ، فالشخص الوحيد الذي لا يرتكب أي خطأ هنا هو أنا ، وما الذي يحدث الآن ، لماذا تنظر إلى دليل الهاتف ، لقد سهوتُ يا سيدي ، هذا مؤشر سيئ ، فأنت تعلم أنه يتوجب عليك أن تنظر إليّ طوال الوقت وأنا أكلمك ، وهذا وارد في القواعد الانضباطية، فأنا الوحيد الذي له الحق بأن يشرد بعينيه ، أجل يا سيدي ، ما هي خطيئتك ، لا أعرف يا سيدي ، الوضع أشد خطورة في هذه الحالة ، فالأخطاء المنسية هي الأسوأ ، لقد كنتُ أنجز واجباتي على أكمل وجه على الدوام ، المعلومات المتوفرة لدي بشأنك كانت مرضية ، ولكن هذا بالتحديد لا يفيد إلا في إثبات أن سوء سلوكك المهني في هذه الأيام ليس نتيجة خطيئة منسية ، وإنما خطيئة حديثة العهد ، خطيئة حالية، ضميري لا يؤنبني ، الضمائر تصمت أكثر مما هو مطلوب منها ، ولهذا ابتُدعت القوانين ، أجل يا سيدي ، يتوجب عليّ أن أتخذ قراراً ، أجل يا سيدي ، وها أنذا قد اتخذته ، حاضر يا سيدي ، إنني أعاقبك بحسم يوم ، وهل الحسم يا سيدي هو من الراتب فقط أم من الخدمة أيضاً ، سأله دون جوزيه وهو يلمح بارقة أمل تضيء . من الراتب ، من الراتب ، فلا يمكن الإضرار بالعمل أكثر مما فعلته ، أضف إلى ذلك أنه لم يمض وقت طويل على منحي لك إذناً بالخروج لنصف ساعة ، ولا تقل لي إنك تأمل في أن أكافئ سوء مسلكك بمنحك يوم إجازة كاملاً ، لا يا سيدي ، وأتمنى ، من أجل مصلحتك ، أن تنفع العقوبة في تقويمك ، وأن تعود سريعاً لتكون الموظف المستقيم الذي كنتَهُ من قبل ، من أجل مصلحة هذه المحفوظات العامة ، حاضر يا سيدي ، ليس لدي ما أضيفه ، ارجع إلى مكانك .

رجع دون جوزيه إلى حيث أُمر قانطاً ، منهار الأعصاب ، وموشكاً على البكاء . خلال الدقائق القليلة التي استغرقتها المحادثة الشاقة مع الرئيس ، كان العمل قد تراكم على المنضدة ، كما لو أن الكتبة الآخرين ، زملاءه ، قد انتهزوا فرصة الوضع الانضباطي المتدهور الذي وجدوه فيه،

وأرادوا ، من جانبهم ، أن يعاقبوه أيضاً .كما أن عدة مراجعين كانوا ينتظرون دورهم لتلبية طلباتهم . جميعهم كانوا قبالته ، ولم يكن ذلك مصادفة ، أو لأنهم فكروا ، حين دخلوا إلى المحفوظات العامة ، في أن الموظف الغائب هو أكثر لطفاً وترحاباً ممن هم أمام أنظارهم على امتداد منضدة الكونتوار ، وإنما لأن أولئك الموظفين أنفسهم أشاروا إليهم بأنه عليهم التوجه إلى هناك . وبما أن الأنظمة الداخلية تشدد على أن خدمة المراجعين يجب أن تولى الأسبقية على العمل المكتبي ،فقد توجه دون جوزيه إلى منضدة الكونتوار ، وهو يعلم أن وابل الأوراق وراءه سيواصل الهطول على منضدته . كان ضائعاً .فالآن ، بعد التحذير الغاضب من المدير وما تلاه من عقاب ،لن يستطيع ، ولو اختلق العذر بميلاد ابن مستحيل ، أو بموت قريب مريب ، أن يُخرج من رأسه أي أمل بأن يمنحوه في المدى المنظور إذناً بالخروج قبل انتهاء العمل أو بالمجيء بعد بدء العمل بساعة ، أو نصف ساعة ، أو حتى دقيقة واحدة . الذاكرة في دار الملفات هذه عنيدة ، بطيئة النسيان ، بطيئة إلى حد لا تصل معه إلى محو أي شيء بالكامل . فلتتقع يا دون جوزيه ، من الآن ولمدة عشر سنوات ، في لحظة سهو ، مهما كانت تافهة ، وسترى كيف أن أحدهم سيُذكّرك في الحال بكل تفاصيل هذه الأيام المنحوسة . ربما كان هو ما يعنيه المدير عندما قال إن أسوأ الأخطاء هي تلك التي تبدو منسية ظاهرياً .لقد كانت بقية اليوم بالنسبة إلى دون جوزيه أشبه بتعذيب مؤلم ، فهو مثقل بالعمل ، ومكدر الفكر . فبينما كان جزء من وعيه يقدم التوضيحات الصائبة لجمهور المراجعين ، وهو يملأ ويختم الوثائق ، ويؤرشف البطاقات ، كان الجزء الآخر ، برتابة ، يلعن الحظ والمصادفة اللذين حوّلا شيئاً لا يمكن له حتى أن يخطر لمخيلة شخص رصين ، متزن الرأس ، إلى فضول مرضي . وكان دون جوزيه يفكر ، الرئيس على حق ،فلا بد أن تكون مصالح المحفوظات فوق أي اعتبار ، ولو أنني كنت عاقلاً ،طبيعياً ، لما كنتُ

انهمكت ، وأنا في هذه السن ، في جمع ممثلين وراقصات ومطارنة ولاعبي كرة قدم ، إنها بلاهة ، عمل غير مجدٍ ، أمر مضحك ، فيا للميراث الجميل الذي سأُخلِّفه عند موتي ، لحسن الحظ أنه ليس لي ذرية ، والسيئ هو أنه ربما كان كل هذا يحدث لي لأنني أعيش دون صحبة ، فلو كانت لدي امرأة . وما إن وصل إلى هذه النقطة حتى انقطع تفكيره ، ثم اتخذ بعد ذلك سبيلاً آخر ، طريقاً ضيقاً ، ملتبساً ،يمكن رؤية صورة طفلة صغيرة عند مدخله ، وفي نهايته ، إذا ما كانت له نهاية ، الشخصية الواقعية لامرأة سوية ، ناضجة ، لها من العمر الآن ست وثلاثون سنة ، وهي مطلقة ، ولماذا أريدها أنا ، لماذا ، ما الذي سأفعله بها بعد أن أتمكن من العثور عليها . وانقطع التفكير مرة أخرى ، وعاد القهقرى بفظاظة فوق الخطوات التي قطعها ، وكيف تتصور أنك ستجدها ، إذا كانوا لا يسمحون لك بالذهاب للبحث عنها ،سأله(تفكيره) ولم يرد هو عليه ،فقد كان مشغولاً في هذه اللحظة في إخبار آخر شخص في صف المراجعين بأن وثيقة الوفاة التي طلبها ستكون جاهزة في اليوم التالي .

ومع ذلك ، هناك أسئلة لجوجة لا تتراجع ، وقد انقضّ عليه أحدها من جديد عندما دخل أخيراً إلى البيت ، وهو منهوك الجسد ومستنفد الحماس . ألقى بنفسه على السرير مثل خرقة ، يريد أن ينام ، أن ينسى وجه الرئيس ، العقاب الجائر ، ولكن السؤال استلقى إلى جانبه ،متسللاً بخفة ، لا يمكنك البحث عنها ، لن يسمحوا لك بذلك ، وكان من المستحيل عليه هذه المرة أن يتظاهر بأنه مشغول بالتحدث إلى جمهرة المراجعين ، وحاول مع ذلك إبداء عدم مبالاته ، فقال إنه سيجد طريقة ما ، وإذا لم يجدها ، فسيتخلى عن كل شيء ، إلا أن السؤال ألح عليه ، إنك تستسلم بسهولة ، ولهذا لم يكن هناك ما يستحق عناء أن تعمد إلى تزوير وثيقة التكليف وأن تجبر تلك السيدة البائسة واللطيفة ساكنة الشقة اليمنى من الطابق فوق الأرضي ، على أن تروي لك قصة ماضيها الخاطئ ،فالدخول

إلى البيوت بتلك الطريقة ، والتدخل في خصوصيات الناس الحميمة هو تصرف ينم عن إساءة الاحترام . جعلته الإشارة إلى وثيقة التكليف يعتدل جالساً على السرير فجأة بذعر . إنها في جيب سترته ، وقد لازمته طوال هذه الأيام الماضية ، تصور لو أنها سقطت منه لسبب أو لآخر ، أو أنه انهار ، في اضطرابه العصبي ، فاقداً الوعي ، وبينما أحد زملائه يفك أزرار ملابسه لكي يتمكن من التنفس ، رأى ، دون سوء نية ، المغلف الأبيض وعليه دمغة المحفوظات العامة وقال ، ما هذا ، وبعد ذلك أحد المأمورين ، ثم نائب المدير ، ثم الرئيس نفسه . ولم يشأ دون جوزيه أن يفكر في ما سيحل به على اثر ذلك ، فنهض قافزاً ،تناول السترة المعلقة على مسند أحد الكراسي ، أخرج وثيقة التكليف ، وبينما هو ينظر فيما حوله متلهفاً، تساءل في أية شياطين يمكنه أن يخبئها . لم تكن لديه أي قطعة أثاث مزودة بقفل ، وكل ممتلكاته القليلة كانت في متناول يد أي روح فضولية تدخل البيت . عندئذ توقف عند المجموعات المرتبة في الخزانة ، هناك يجب أن يكون المخرج من المأزق الصعب . اختار ملف المطران وأدخل فيه المغلف ، فلا يمكن لمطران أن يستثير الفضول مهما بلغت سمعته في الورع والتقوى ، فهو ليس دراجاً ولا متسابقاً من متسابقي الفورملا واحد (الفئة الأولى) . رجع إلى السرير هادئ الروع ، ولكن السؤال كان بانتظاره ، لم تحقق أي تقدم ، فالمشكلة ليست في وثيقة التكليف ، ولا فرق في أن تخفيها أو تُظهرها ، فليس هذا هو الذي سيوصلك إلى المرأة ، لقد قلتُ لكَ إنني سأجد طريقة ما ، أنا أشك في ذلك ، فقد قيّدك المدير جيداً من قدميك ويديك ، ولن يسمح لك بأن تخطو خطوة واحدة ، سأنتظر إلى أن تهدأ الأمور ، وماذا بعد ذلك ، لستُ أدري ، ولكن فكرة ما ستخطر لي ، بإمكانك أن تحل المسألة الآن بالذات ، وكيف ذلك ، تتصل هاتفياً بأبويها ، وتقول لهما إنك تتكلم باسم المحفوظات ، وتطلب منهما أن يعطياك العنوان ، هذا ما لا يمكنني أن أفعله ، وغداً تذهب إلى بيت

المرأة ، ولا يمكنني تخيل الحديث الذي سيدور بينكما ، ولكنك ستطمئن على الأقل ، ربما لن أكلمها عندما أجدها أمامي ، إذا كانت هذه هي الحال ، فلماذا تبحث عنها ، لماذا تتحرى عن تفاصيل حياتها ، إنني أجمع أوراقاً عن المطران أيضاً ولستُ مهتماً بالتحدث إليه يوماً ، يبدو لي الأمر ضرباً من العبثية ، إنها عبثية ، ولكن الوقت قد حان لعمل شيء عبثي في هذه الحياة ، أتريد أن تقول لي إنك إذا ما توصلتَ إلى لقاء المرأة ، فإنها لن تعلم بأنك كنت تبحث عنها ، هذا هو الاحتمال المؤكد ، ولماذا ، لا يمكنني تفسير ذلك ، على كل حال ، لن يكون بإمكانك الذهاب إلى مدرسة الطفلة ، فالمدارس مثل المحفوظات العامة ، تبقى مغلقة في عطلة نهاية الأسبوع ، ولكنني أستطيع الدخول إلى المحفوظات في أي وقت أشاء ، لا يمكن القول إنها مأثرة حقيقية خارقة ، فباب بيتك يؤدي إليها ، يبدو أنك لم تذهب هناك قط بنفسك ، إنني أذهب حيثما تذهب أنت ، وأشهد ما تفعله ، يمكنك أن تواصل ، سأواصل ، ولكنك لن تستطيع دخول المدرسة، سنرى ذلك . نهض دون جوزيه ، وكان قد حان موعد تناوله العشاء ، إذا كانت تستحق هذه التسمية تلك التوليفات الخفيفة التي اعتاد على تناولها ليلاً . وبينما هو يأكل ، كان يفكر ، وبعد ذلك غسل الطبق والكأس وأدوات الطعام ، والتقط الفتات الذي سقط على الشرشف ، وكان يواصل التفكير ، ثم فتح الباب المؤدي إلى الشارع ، كما لو أن هذه الحركة هي النتيجة المؤكدة لما فكر فيه ، قبالته ، في الجهة الأخرى من الشارع ، كانت هناك كابينة هاتف ، على مرمى حجر كما يقال ، فعشرون خطوة تمكنه من إمساك طرف الخيط الذي سينقل صوته ، والخيط نفسه سيحمل له جواباً ، وهناك ، سواء من هذا الاتجاه ، أو من الاتجاه الآخر، سينتهي البحث ، ويمكنه العودة إلى بيته مطمئناً ، ويستعيد ثقة رئيسه، وبعد ذلك ، سيستعيد العالم مداره المعهود ، ليدور على أثره الخاص وغير المرئي ، ويستعيد السكينة العميقة لمن ينتظر ببساطة الساعة التي

تكتمل فيها كل الأشياء ، إذا ما كان لهذه الكلمات ، التي طالما قيلت وتكررت ، أي معنى حقيقي . لم يجتز دون جوزيه الشارع ، بل ارتدى السترة والمعطف ، وخرج .

كان عليه أن يستبدل الحافلة مرتين قبل أن يصل إلى هدفه . كانت المدرسة بناء طويلاً ، من طابقين وعُلّيّات ملحقة على السطح ، يفصله عن الشارع سور مرتفع . ولا بد أن الحيز الوسيط ، وهو عبارة عن شريط من الأرض تنمو فيه أشجار قصيرة متفرقة ، كان يُستخدم كباحة لفسحة التلاميذ . لم يكن هناك أي ضوء . نظر دون جوزيه فيما حوله ،كان الشارع مقفراً بالرغم من أن الوقت لم يكن متأخراً ، وهذا هو الجيد في هذه الأحياء البعيدة عن المركز ، وخصوصاً إذا كان الوقت لا يسمح بفتح النوافذ ، والجيران ينزوون داخل بيوتهم ، إضافة إلى أنه لا يوجد ما يستحق الرؤية في الخارج . مشى دون جوزيه حتى نهاية الشارع ، ثم غيّر الرصيف ، وهو يأتي الآن ماشياً باتجاه المدرسة ،بتمهل ،مثل من يروقه الخروج للتمتع بالبرودة الليلية وليس هناك من ينتظره . وعند البوابة ، انحنى مثل من اكتشف لتوه أن رباط حذائه مفلت ، إنها حيلة قديمة ومستهلكة ، لا تنطلي على أحد ، ولكنها تُستخدم لعدم وجود أفضل منها عندما لا تُسعف المخيلة بالمزيد . دفع البوابة برفقه ، فتحركت قليلاً، لم تكن مقفلة بمفتاح . وبصورة منهجية عقد دون جوزيه عقدة أخرى فوق الأولى ، ثم نهض واقفاً وضرب قدمه على الأرض ليتأكد من متانة عقدة الرباط ، وواصل طريقه ،بسرعة أكبر الآن ، كما لو أنه تذكر فجأة أن هناك من ينتظره .

عاش دون جوزيه ما تبقى من أيام الأسبوع كما لو أنه يشهد أحلامه الخاصة . لم يلحظوا في المحفوظات اقترافه لأي خطأ ، فهو لم يسهُ ، ولم يخطئ ويستبدل ورقة بأخرى ، وأنجز كميات ضخمة من العمل كانت تدفعه في أوقات أخرى إلى الاحتجاج ، بالصمت طبعاً ،ضد

المعاملة غير الإنسانية التي يقع الكتبة ضحية لها منذ الأزل ، وقد أنجز كل ذلك وتحمله دون كلمة واحدة ، ودون تمتمة واحدة . نظر إليه المدير مرتين من بعيد ، ونحن نعرف أن ذلك ليس من عادته ، فليس من عادته النظر إلى مرؤوسيه ، وخصوصاً إذا كانوا من المرتبة الدنيا ، ولكن التركيز الروحي لدون جوزيه بلغ حداً من الزخم يستحيل معه عدم الانتباه إليه في أجواء المحفوظات العامة الراكدة على الدوام . ويوم الجمعة ، عند انتهاء العمل ، ودون أن يستشعر أحد ذلك ، خالف المدير كل الأنظمة ، وازدرى كل التقاليد ، وأذهل جميع الموظفين لدى خروجه، عندما سأل دون جوزيه وهو يمر بجانبه ، هل أنت أحسن حالاً . فرد دون جوزيه بنعم ، وبأنه أحسن حالاً بكثير ، وأنه لم يعد يعرف الأرق ، فقال المدير ، لقد أثمرت المحادثة بيننا ، وبدا عليه أنه سيضيف شيئاً آخر، فكرة ما خطرت له فجأة ، ولكنه أطبق فمه وخرج ، هذا ما كان ينقصه، فإلغاء عقوبة مفروضة سيكون خرقاً لأنظمة الانضباط . الكتبة الآخرون ، والمأمورون وكذلك نائبا المدير نظروا إلى دون جوزيه وكأنهم يرونه لأول مرة ، فقد حوّلته كلمات الرئيس القليلة إلى شخص مختلف ، مثلما يحدث بهذا القدر أو ذاك ، عند أخذ طفل وليد لتعميده ، لأنه يكون شخصاً عندما يؤخذ ويصير شخصاً آخر عند إرجاعه . انتهى دون جوزيه من ترتيب المنضدة ، ثم انتظر بعد ذلك دوره للخروج ، فقد كان من المتوافق عليه أن من يخرج أولاً هو نائب المدير الأقدم ، ويليه المأمورون ، وبعد ذلك الكتبة ، ودائماً حسب الأقدمية ، أما نائب المدير الآخر فيتوجب عليه إقفال الباب . وعلى خلاف عادته ، لم يقم دون جوزيه بالالتفاف حول المحفوظات العامة ليذهب إلى بيته ، وإنما سار باتجاه الشوارع القريبة ، ودخل ثلاثة متاجر مختلفة ، واشترى حاجة من كل واحد منها ، نصف كيلو غرام من شحم الخنزير من أحدها ، ومنشفة خشنة من متجر آخر ، واشترى شيئاً آخر كذلك ، شيئاً ضئيلاً ، تتسع له

راحة اليد ، وقد خبأه في جيب سترته الخارجي ، لأنه لا يحتاج إلى اللف . وبعد ذلك توجه إلى البيت . كان قد انقضى وقت طويل على منتصف الليل عندما خرج . في هذه الساعة كانت الحافلات التي تجوب الشوارع قليلة ، ولا تظهر واحدة منها إلا في أوقات متباعدة ، ولهذا قرر دون جوزيه ، للمرة الثانية منذ أن ظهرت له بطاقة المرأة المجهولة ، أن يستقل سيارة أجرة . كان يشعر بنوع من الارتجاج في بواب معدته ، كأنه أزيز ، كأنه هيجان ، ولكن رأسه بقي ساكناً أو أنه ، ببساطة ، كان عاجزاً عن التفكير . في إحدى اللحظات انكمش دون جوزيه في مقعد سيارة الأجرة وكأنه يشعر بالخوف من أن يُرى ، بل حاول أن يتخيل ما الذي يمكن أن يحدث له ، والنتائج التي قد تلحق بحياته ، إذا ما أخفق في مسعاه الذي يوشك أن يُقدم عليه ، ولكن تفكيره اختبأ وراء أحد الجدران ، وقال من موقعه ذاك ، لن أخرج من هنا ، وقد تفهم هو ذلك ، لأنه يعرف جيداً أن تفكيره يريد أن يحميه ، ليس من الخوف ، وإنما من الجُبْن . عندما صار قريباً من هدفه ، أمر سيارة الأجرة بالتوقف ، سيجتاز المسافة القصيرة المتبقية مشياً على قدميه ، كان يضع يديه في جيبيه، ممسكاً ، تحت المعطف المزرر ، اللفافتين اللتين تضمان الشحم والمنشفة. وفي اللحظة التي كان سينعطف فيها عند الناصية ليدخل إلى الشارع الذي فيه المدرسة ، سقطت عليه قطرات مطر متفرقة ، ما لبثت أن تحولت بعد ذلك ، عندما اقترب من البوابة ، إلى وابل كنسَ الشارع بصخب . لقد قيل منذ الأزمنة الكلاسيكية بأن القدر يحمي الجسورين ، وقد كانت الوسيلة المكلفة بالحماية في هذه الحالة هي المطر ، أو بكلمات أخرى ، السماء مباشرة ، لأنه إذا ما كان هناك أحد في تلك الأنحاء ، في مثل هذه الساعة المتأخرة ، فإنه سيكون مشغولاً دون شك بحماية نفسه من الوابل المفاجئ أكثر من اهتمامه بمراقبة الحركات المريبة لشخص يرتدي معطفاً ، لا لقد هرب من وابل المطر بسرعة غير متوقعة بالنسبة إلى

عمره الظاهري ، فقد كان الآن بالذات هنا وها هو لم يعد موجوداً . كان دون جوزيه محتمياً تحت إحدى أشجار الرصيف ، قلبه يخفق بجنون ، وهو يتنفس بجزع ، مذهولاً من الرشاقة التي تحرك بها ، وهو الذي لم يتعدَ ، في مسألة التمارين البدنية ، حدود تسلق سلم المحفوظات العامة ، والله يعلم بأي إرادة يفعل ذلك . صار بمنجى من النظرات في الشارع ، وكان يظن أنه بالتنقل الحذر من شجرة إلى شجرة ، يمكنه الوصول إلى بوابة المدرسة دون أن ينتبه إليه أحد في الخارج . وكانت لديه قناعة بأنه لا وجود لحراسة في الداخل ، أولاً بسبب عدم وجود نور مضاء ، سواء في المرة السابقة أو اليوم ، ثم لأن المدارس ، اللهم إلا لأسباب خاصة واستثنائية ، ليست بالأمكنة التي تغري بالسطو عليها . وقد كانت أسبابه خاصة واستثنائية ، ولهذا ذهب إلى هناك ، مسلحاً بنصف كيلو غرام من الشحم ، ومنشفة ومقص زجاج ، وهذا هو الشيء الذي لم يكن بحاجة إلى لفه . عليه أن يفكر الآن جيداً في ما سيفعله . الدخول من الجهة الأمامية سيكون تهوراً ، إذ يمكن لجار يسكن في أحد الطوابق العليا من الجهة الأخرى للشارع أن يطل ليتأمل المطر الذي يواصل الهطول بغزارة ويرى رجلاً يكسر نافذة المدرسة . هناك أناس كثيرون لا يحركون إصبعاً ليحولوا دون وقوع عمل عنف ، بل إنهم يسدلون الستارة ويعودون إلى الفراش قائلين ، ما شأننا ، ولكن هناك أشخاصاً آخرين إذا كانوا لم يُخَلِّصوا العالم ، فإنما لأن العالم لا يريد الخلاص ، وهؤلاء يستدعون الشرطة فوراً ، ويطلون من الشرفة وهم يصرخون ، حرامي ، وهذه كلمة قاسية لا يستحقها دون جوزيه ، الذي تبدو كلمة مُزَيِّف كثيرة عليه ، ولكن هذا أمر نعرفه نحن فقط . التف إلى الجهة الخلفية ، ربما كان الأمر أسهل من هناك ، هكذا فكر دون جوزيه ، وربما كان على حق ، فكثيراً ما تكون الجهات الخلفية من المباني سيئة الحماية ، وتكون فيها أمتعة قديمة مكومة ، ودلاء تنتظر استخدامها من جديد ،

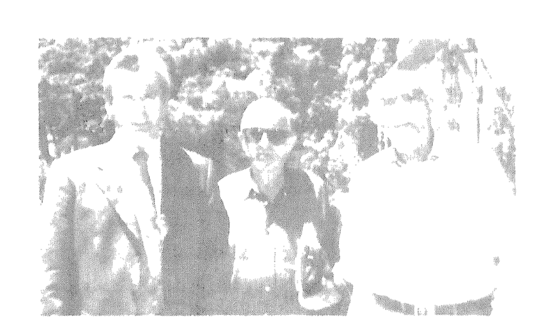
وعلب طلاء قديمة ، وبعض الطوب المفتت المتبقي من ورشة ترميم ، وهذا أفضل ما يتمناه من يسعى إلى ارتجال درج يصعد عليه من أجل بلوغ نافذة ، والدخول منها . والواقع أن دون جوزيه وجد بعض هذه الأشياء النافعة ، ولكن كل شيء كان مرتباً تحت ظُلّة مائلة ملتصقة بالجدار ، ولا بد كما يبدو من التلمس هنا وهناك بحذر ، مما يستدعي الكثير من الجهد والوقت من أجل اختيار وإخراج ، في الظلام ، ما هو مناسب أكثر من سواه للحاجات البنائية للهرم الذي سيصعد عليه ، لو أن بالإمكان الصعود إلى السطح ، هكذا غمغم ،وقد كانت الفكرة من حيث المبدأ رائعة ، لأن هناك نافذة تعلو شبرين عن موقع التحام حافة الظُلّة العلوية بالجدار ، ولكنه فكر ، لن يكون الأمر سهلاً على هذا النحو مع ذلك ، فالسقف شديد الميل ، ولا بد أن يكون زلقاً جداً مع هذا المطر . أحس دون جوزيه بفقدان الحماس ، وهذا ما يحدث لمن ليست لديه خبرة في السطو ، من لم يستفد من دروس معلمي التسلق والتسلل ، بل لم يخطر له أن يستطلع المكان مسبقاً ،وكان بإمكانه أن يستغل ذلك اليوم الذي تأكد فيه من أن البوابة ليست مقفلة بمفتاح ، ولكنه أحس في تلك المناسبة بأن الحظ قد حالفه كثيراً وفضل ألا يتمادى . كان يضع في جيبه المصباح اليدوي الصغير الذي يستخدمه في المحفوظات العامة ليضيء البطاقات ، ولكنه لم يشأ أن يشعله هنا ، فوجود كتلة في العتمة ، تكاد لا تلفت الانتباه ، هو شيء ، وشيء آخر مختلف جداً ، وأسوأ بكثير ، هو حزمة ضوء تتحرك وتشي بنفسها ، انظروا ، إنني هنا . وبينما هو محتم تحت الظُلّة ،كان يسمع المطر يقرع صفيح السقف بلا كلل ، دون أن يدري ماذا عليه أن يفعل . كانت هناك في هذا الجانب أيضاً أشجار أكثر طولاً وتشابكاً من أشجار الجهة الأمامية ، ولو كان ثمة بنايات مخبأة وراءها فلن يكون بإمكانه رؤيتها من موقعه ، وبالتالي ، لا يمكن لهم هم أيضاً أن يرونني ، هكذا فكر دون جوزيه ، وبعد أن تردد لحظة ، أشعل

المصباح وحرّكه من جانب إلى آخر ، في حركة سريعة . لم يكن مخطئاً ، فمستودع المدرسة المبني من حدائد قديمة كان مُعداً ومكيفاً ببعد نظر ، وكأن أجزاءه قطعُ آليةٍ متداخلة . أعاد إشعال المصباح ، ووجه بؤرة الضوء هذه المرة نحو الأعلى . كان هناك سلّم مطروح فوق الأمتعة ، ومفلت عما سواه ، كقطعة تُستخدم بين حين وآخر . وسواء بسبب هذا الاكتشاف غير المتوقع ، أو بسبب ذكرى مفاجئة ولاإرادية لأعالي المحفوظات العامة ، بدا في عيني دون جوزيه شيء ، طريقة في التعبير معهودة تُغني عن استخدام كلمة دوار التي تتردد على أفواه العامة الذين لم يولدوا من أجل هذا . لم يكن السلّم طويلاً بحيث يصل إلى النافذة ، ولكنه يكفي للصعود إلى سطح الظُلّة ، ومن هناك ، فليحدث ما يشاؤه الرب .

ولذكر اسمه ،قرر الرب أن يساعد دون جوزيه في هذه اللحظة الحرجة ، وهو ليس بالحدث الاستثنائي إذا ما أخذنا بعين الاعتبار الأعداد الهائلة من لصوص السطو على البيوت الذين حالفهم الحظ ، مذ صارت الدنيا دنيا ، في العودة من عمليات سطوهم ، ليس محملين بالغنائم وحسب ، وإنما سليمي الأجساد كذلك ، أي بكلمة أخرى ، دون تعرضهم لعقاب إلهي .وقد شاءت العناية الإلهية أن تكون الألواح الإسمنتية المجعدة التي تشكل سقف الظُلّة ، فضلاً عن خشونتها عند تصنيعها ، ذات حواف بارزة في نهايتها السفلية ، ويبدو أن مصممها ، غير المتيقظ ، في المصنع ، لم يستطع مقاومة جاذبيتها التزيينية . وبفضل تلك النتوءات ، وعلى الرغم من شدة ميلان السطح ، بوضع قدم هنا ، ويد هناك ، وبالتأوه ، والتنهد ، والكشط بأظفاره ، وخدش مقدمة حذائه ، تمكن دون جوزيه من الزحف إلى أعلى . لم يعد عليه الآن سوى الدخول . حسن ، لقد حان الوقت لأن نقول إن دون جوزيه قد استخدم ، في شؤون التسلق والخلع ، أساليب غير معاصرة على الإطلاق ، حتى لا نقول إنها أساليب قديمة ، بل ومغرقة في القِدم .فقد قرأ في وقت سابق ، وهو لا

يذكر متى ولا في أي كتاب أو ورقة ، بأن شحم الخنزير ومنشفة خشنة هما من اللوازم الاضطرارية لمن يريد قص الزجاج ، حين يكون ما يرمي إليه هو الدخول من نافذة بنوايا خبيثة ، وقد تزود بهذه الوسائل غير المعهودة ، فضلاً عن تسلحه بشقة عمياء . كان بإمكانه ، دون ريب ، لكي يختصر الوقت ، أن يوجه لكمة بسيطة إلى الزجاج ، ولكنه خشي ، حين خطط للاقتحام ، أن ينبه الدوي ، الذي سيتلو الضربة حتماً ، الجيران ، ومع أن دوي الطبيعة العاصف سيخفف من المخاطرة ، فقد فضل أن يتقيد بانضباطية المنهج بصرامة . وهكذا ، بينما هو يسند قدميه إلى الحافة الناتئة التي وفرتها له العناية الإلهية ، ويثبت ركبتيه على خشونة ألواح السقف ، بدأ دون جوزيه بقص الزجاج بالماسة عند مستوى إطار النافذة . وبعد ذلك ، وهو يلهث من الجهد والوضع غير المريح الذي هو فيه ، مسح الزجاج بمنديله كيفما اتفق ، كي لا يضر بقدرة الشحم المنشودة في الالتصاق ، أو بما تبقى من الشحم ، ذلك أن الجهود العنيفة التي أقدم عليها ليتسلق السطح المائل حولت لفافة الشحم إلى عجينة لزجة وعديمة الشكل ، مع النتائج التي يمكن تصورها في ما يتعلق بهندام ملابسه الذي جاء به . ومع ذلك ، فقد استطاع أن يوزع على الزجاج طبقة من الشحم لا بأس بسماكتها ، ثم ألصق فوقها ، بأقصى ما يمكن من عناية ، المنشفة التي تمكن ، بعد ألف حركة متلوية ، من إخراجها من جيب معطفه . صار عليه الآن أن يحسب بدقة متناهية قوة الضربة ، التي يجب ألا تكون ضعيفة جداً فيضطر إلى تكرارها ، ولا قوية جداً بحيث تُفسد التصاق فتات الزجاج بالمنشفة . وبينما هو يضغط الجزء العلوي من المنشفة إلى إطار النافذة بيده اليسرى كي لا تنزلق ، أطبق دون جوزيه قبضته اليمنى ، ودفع ذراعه إلى الوراء ووجه ضربة حاسمة جاءت لحسن الحظ صماء ، ومخنوقة ، مثل طلقة من سلاح مزود بكاتم للصوت . لقد أنجز ذلك من الضربة الأولى ، وهذه مأثرة باهرة بالنسبة إلى متدرب .

سقطت شظية أو اثنتان ، فقط ، من فتات الزجاج إلى الداخل ، ولكن لا أهمية لذلك ، فليس هناك أحد في الداخل . بقي دون جوزيه لعدة ثوانٍ، بالرغم من المطر ، مستلقياً على السطح ، كي يستعيد قواه ويتلذذ بالنصر . وبعد ذلك ، استوى بجسده ، وأدخل ذراعه من الفتحة ، بحث عن مزلاج النافذة ووجده . رباه ، كم هي قاسية حياة لصوص المنازل ، فتح النافذة على مصراعيها ، ثم تمسك بالحافة ، وبمساعدة مغمومة من قدميه اللتين لم تعودا تجدان نقاط ارتكاز ، تمكن من دفع جسده إلى أعلى ، ومن رفع إحدى ساقيه ، ثم الأخرى ، لكي ينتهي إلى السقوط في الجانب الآخر ، بخفة ، مثل ورقة أفلتت من الشجرة .







احترام حقيقة الوقائع والواجب الأخلاقي البسيط في عدم المساس بمصداقية من استعد لتقبل مفاجآت ذلك البحث الفريد على أنها عقلانية ومترابطة ، تستدعي التوضيح الفوري بأن دون جوزيه لم يسقط بنعومة من حافة النافذة ، مثل ورقة أفلتت من غصن . بل على العكس ، فما حدث هو أنه سقط بخذلان ، مثلما تسقط الشجرة بأكملها ، في الوقت الذي كان فيه من السهل عليه الانزلاق شيئاً فشيئاً من موقعه المؤقت إلى أن تلمس قدماه الأرض . لقد أثبتت له السقطة ، بسبب قسوة الارتطام وبسبب تواصل الملامسة المؤلمة ، وحتى قبل أن تتمكن عيناه من تأكيد ذلك ، بأن المكان الذي هو فيه كان أشبه بامتداد للظُلّة الخارجية ، أو أنه على الأرجح جانبها الداخلي ، فالمكانان كلاهما مخصص للأمتعة المهملة ، ولكن هذا المكان أولاً ، وبعد أن لم يعد يتسع ، شيدوا الآخر الخارجي . بقي دون جوزيه جالساً بضع دقائق ينتظر انتظام تنفسه وتوقف ارتعاش ذراعيه وساقيه . وبعد فترة الانتظار تلك ، أشعل المصباح اليدوي ، محاذراً ألا يضيء سوى الأرض التي أمامه ، ورأى أن هناك ، بين الأثاث المتراكم بين هذا الجانب وذاك ، ممراً تُرك فارغاً يؤدي إلى الباب . راوده القلق حين فكر في أنه قد يكون مقفلاً بمفتاح ، وسيكون عليه في هذه الحالة أن يخلعه دون امتلاك الأدوات المناسبة ، مع ما سيتبع ذلك من ضجة لا مفر

منها . كان المطر يواصل الهطول في الخارج ، ولا بد أن الجيران قد ناموا ، ولكن لا يمكننا الثقة كثيراً بذلك ، فهناك أشخاص نومهم خفيف إلى حدٍّ يمكن معه لطنين بعوضة أن يوقظهم ، وهم ينهضون بعد ذلك ، ويذهبون إلى المطبخ ليشربوا كأس ماء ، وينظرون مصادفة إلى الخارج ويرون ثقباً أسود مستطيلاً في جدار المدرسة ، وربما يعلقون ، يا لقلة انتباه القائمين على المدرسة ، فهم يتركون النافذة مفتوحة في مثل هذا الطقس ، أو أنهم يفكرون ، تلك النافذة ، إذا لم تخني الذاكرة ، كانت مغلقة ، ولا بد أن قوة الريح هي التي فتحتها ، ولن يفكر أحد في إمكانية أن يكون هناك لص في الداخل ، أضف إلى ذلك أنهم سيكونون مخطئين تماماً ، لأن دون جوزيه ، وأذكِّر بذلك مرة أخرى ، لم يأت إلى هنا ليسرق .لقد خطر له الآن بالذات أنه يتوجب عليه إغلاق النافذة لكي لا يسمعوا في الخارج صوت الخلع ، ولكنه متشكك ، وهو يتساءل عما إذا لم يكن من الأفضل تركها على حالها ،سيظنون أن الريح هي السبب أو إهمال أحد المستخدمين ، أما إذا أغلقها فسوف يُلاحظ فوراً كسر الزجاج ، خصوصاً وأن زجاج النافذة غير شفاف ، وأقرب إلى البياض . ولثقته بأن بقية العالم تستخدم ما لديها من الروح بطريقة استنتاجية كطريقته ،قرر دون جوزيه أن يترك النافذة مفتوحة وراح يزحف بعد ذلك بين قطع الأثاث حتى بلغ الباب . لم يكن مقفلاً بالمفتاح . تنفس الصعداء ، فلن تكون ثمة عقبات بعد الآن . إنه بحاجة لمقعد مريح ، ومن الأفضل أن تكون أريكة ، لكي يستريح خلال ما تبقى من الليل ، بل يمكنه أن ينام أيضاً إذا ما أتاحت له أعصابه ذلك . وكان ، مثل لاعب شطرنج مجرّب ،قد حسب المشاكل ودرسها ، والواقع أنه ليس من الصعب ، حين يكون المرء متأكداً من الأسباب الموضوعية المباشرة ، التقدم بصورة تنقيبية عبر مروحة المؤثرات المحتملة والممكنة وتحولها إلى أسباب ، فكل شيء يتولد من توالي مؤثرات فأسباب فمؤثرات ، وأسباب فمؤثرات فأسباب ، إلى ما لا

نهاية ، ولكننا نعرف أن حالة دون جوزيه لن تصل بعيداً . وربما سيبدو للحذرين حماقة أن يحشر الكاتب العمومي نفسه في فم الذئب ، وهو الآن ، كما لو أن الجسارة التي أقدم عليها صغيرة ، يريد أن ينام باطمئنان خلال ما تبقى من الليل وكل نهار الغد ، مع المجازفة بأن يفاجئه متلبساً في الجريمة شخص أكثر قدرة على الاستدلال منه في مسألة النوافذ المفتوحة . ولا بد من الاعتراف مع ذلك بأن ما هو أكثر حماقة من ذلك ، التنقل من قاعة إلى أخرى وإشعال الأنوار فيها . فالجمع بين النافذة المفتوحة والنور المضاء ، عندما يكون معروفاً أن مستخدمي البيت أو المدرسة الشرعيين غائبون ، هي عملية ذهنية في متناول أي شخص مهما كان قليل التشكك ، وهو سيلجأ عموماً إلى استدعاء الشرطة .

كان دون جوزيه يشعر بالآلام في كل أنحاء جسده ، لا بد أن ركبتيه مجرحتان ، وربما هما تنزفان ، لأن الإزعاج الذي تسببه له ملامسة البنطال لا تعني شيئاً آخر ، أضف إلى ذلك أنه كان مبللاً ومتسخاً من رأسه حتى قدميه . خلع المعطف الذي كان يقطر ، وفكر ، لو كان ثمة ركن داخلي معزول هنا ، لاستطعت إشعال النور ، ولوجدت غرفة حمام ، غرفة حمام حيث يمكنني أن أغسل يدي على الأقل . وبينما هو يتلمس الطريق ، يفتح الأبواب ويغلقها ، وجد ما كان يبحث عنه ، أولاً ركن صغير بلا نوافذ ، فيه خزائن ذات رفوف تُحفظ فيها مواد مدرسية ومكتبية ، أقلام رصاص ، دفاتر ، أوراق ، أقلام حبر ، ممحايات ، زجاجات حبر ، مساطر ، مثلثات ، زوايا قائمة ، علب رسوم ، أنابيب صمغ ، علب مشابك ، ولم يتمكن من رؤية أكثر من ذلك . وعلى النور المضاء ، تمكن أخيراً من تفحص الأضرار التي أحدثتها المغامرة . لم تكن جراح ركبتيه بالسوء الذي توقعه ، فالخدوش سطحية ، وإن كانت مؤلمة . عندما يطلع ضوء النهار ، ولا يكون مضطراً إلى إشعال الأنوار ، سيبحث عما هو

موجود في كل المدارس ، خزانة الإسعافات الأولية البيضاء ، المعقم ، ماء الأكسجين ، القطن ، الضماد ، نسيج الكمادات ، لصاقات الجروح ، مع أنه لن يكون بحاجة إلى كل ذلك . ولكن هذه الوسائل الدوائية لن تساعده بشأن المعطف ، فداؤه هو القذارة ، إنه شحم الخنزير الذي تشرب في القماش ، وفكر دون جوزيه ، ربما سأتمكن من إزالة البقع الكبيرة بالكحول . ثم بحث بعد ذلك عن دورة مياه ، وقد حالفه الحظ ، لم يكن بحاجة إلى المشي كثيراً للعثور على واحدة منها ، ولا بد أنها دورة المياه التي يستخدمها الأساتذة ، نظراً إلى ترتيبها ونظافتها . وكان لنافذتها ، التي تطل كذلك على الجهة الخلفية من المدرسة ، إضافة إلى زجاجها غير الشفاف ، وهو يحتاج إليه هنا أكثر مما في حجرة المهملات التي دخل منها ، مصاريع إضافية من الخشب ، مما أتاح لدون جوزيه أن يشعل النور أخيراً ويغتسل وهو يرى ما يفعله . وبعد ذلك ، حين استعاد قواه وصار نظيفاً إلى حد ما ، بحث عن مكان ينام فيه . ومع أنه في الأزمنة التي كان فيها طالباً لم يمر في مدرسة مثل هذه ، بهذا الجهاز وهذه الأبعاد ، فقد كان يعرف بأن لكل مدرسة مديراً ، وأن لكل مدير مكتباً ، وأن كل مكتب توجد فيه أريكة ، وهذا هو بالضبط ما يطلبه جسده الآن . واصل فتح الأبواب وإغلاقها ، نظر داخل القاعات التي يمنحها الضوء الخارجي الخافت مظهراً شبحياً ، حيث تبدو مقاعد التلاميذ أشبه بجثوات ترابية متراصفة ، وحيث منضدة المعلم أشبه بمذبح قرابين قاتم ، والسبورة السوداء كأنها المكان الذي تدون عليه حسابات الجميع . وكانت تتدلى على الجدران ، مثل البقع الغامضة التي يخلفها الزمن على بشرة المخلوقات والأشياء ، خرائط للقبة السماوية ، والعالم ، والبلدان ، ومخططات سوائل وتضاريس الجسد البشري ، أقنية الدم ، الانتقال الهضمي ، تناسق العضلات ، اتصال الأعصاب ، هيكل العظام ، كير الرئتين ، متاهة الدماغ ، بِلاط العين ، اختلاط الأعضاء التناسلية . وكانت قاعات الدرس تتوالى

على امتداد الممرات التي تدور مخترقة المدرسة ، وتنتشر في كل مكان رائحة الطباشير ، وهي رائحة قديمة كرائحة الأجساد تقريباً ، هناك من يقول إن الرب حين أراد أن يعجن الطين الذي قرر أن يصنع منه الرجل والمرأة ، بدأ برسمهما بقطعة طباشير على سطح الليلة الأولى ، ومن هنا جاءنا اليقين الوحيد المؤكد بأننا كنا وما زلنا وسنكون تراباً ، وأننا في ليلة عميقة مثل تلك سوف نفقد أنفسنا . لقد كان الظلام كثيفاً ، وتاماً، في بعض الأماكن ، كما لو أنهم قد غطوها بأقمشة سوداء ، بينما كانت تطفو في أماكن أخرى انعكاسات متذبذبة كما في بركة ماء ، إضاءة فسفورية مائلة إلى الزرقة لا يمكن لها أن تكون آتية من مصابيح الشارع ، أو أنها ، إذا كانت آتية منها ، تتحول لدى اختراقها الزجاج . فتذكر دون جوزيه الضوء الأبدي الشاحب المتدلي فوق منضدة المدير ، والذي تحيط به الظلمة وتبدو أنها على وشك أن تفترسه ، فغمغم : المحفوظات العامة مختلفة ، ثم أضاف ، وكأنه بحاجة إلى الرد على نفسه ، ربما كلما تعاظم الاختلاف ، تعاظم التماثل ، وكلما تعاظم التماثل ، تعاظم الاختلاف ، ولم يكن قد توصل في تلك اللحظة بعد إلى معرفة إلى أي حد يمكن للعقل أن يسعفه .

لم يكن في هذا الطابق سوى قاعات ، لا بد أن يكون مكتب المدير في الطابق العلوي ، بعيداً عن الأصوات ، عن الصخب المزعج ، عن ازدحام الدخول إلى الدروس والخروج منها . كانت هناك كوة في أعلى درج الصعود إلى الطابق العلوي ، ومع الارتقاء يتم الصعود تدريجياً من العتمة إلى النور ، وهو ما لا يحتمل ، في هذه الظروف ، معنى آخر سوى التمكن من رؤية موطئ قدميه . وشاءت مصادفة البحث الجديد أن يدخل دون جوزيه ، قبل أن يعثر على مكتب المدير ، إلى سكرتارية المدرسة ، وهي قاعة ذات ثلاث نوافذ تطل على الشارع . الأثاث فيها من النوع المألوف في مثل هذه الأماكن ، فهناك بضع طاولات ، وعدد مماثل من الكراسي ،

وخزائن ، وملفات ، وأدراج بطاقات ، وقد طفر قلب دون جوزيه حين رآها ، فهذا هو ما يبحث عنه ، بطاقات ، ونشرات ، وسجلات ، ودرجات ، وتاريخ المرأة المجهولة وأوضاعها التعليمية في مرحلة طفولتها ومراهقتها ، على افتراض أنه لم تكن هناك مدارس أخرى في حياتها بعد هذه المدرسة .فتح دون جوزيه أحد أدراج خزانة البطاقات دون تعيين ، ولكن الضوء الآتي من الشارع لم يكن كافياً لكي يدرك ما هو نوع المعلومات التي تتضمنها البطاقات . لدي متسع من الوقت ، هكذا فكر دون جوزيه ،وما أنا بحاجة إليه الآن هو النوم . خرج من السكرتارية وبعد بابين من ذلك وجد أخيراً مكتب المدير . إذا ما قورن المكتب بتقشف المحفوظات العامة ، فلن تكون ثمة مبالغة في الحديث عن الرفاهية هنا . فالأرضية مغطاة بالموكيت ، وتوجد على النافذة ستائر من قماش سميك ، وهي مسدلة الآن ، والمنضدة الفسيحة ذات طراز قديم ، والمقعد من جلد أسود ، وحديث ، وكل هذا عرفه دون جوزيه لأنه عندما فتح الباب ووجد نفسه في ظلام دامس ، لم يتردد في إشعال المصباح اليدوي أولاً ، ثم مصباح السقف بعد ذلك مباشرة . فحين صار داخلاً ،لم يرَ أي ضوء من الخارج ، وبالتالي لا يمكن لأحد في الخارج أن يرى الضوء في الداخل أيضاً .كان مقعد المدير مريحاً ، يمكنه أن ينام عليه ، ولكن الأفضل منه بكثير هي الأريكة الطويلة والعريضة ذات الثلاثة مواضع التي بدت وكأنها تفتح له ذراعيها بحنان ، لكي تحتضنه وتُريح جسده المنهوك . نظر دون جوزيه إلى الساعة ،ما زالت هناك بضع دقائق لتبلغ الثالثة .وحين رأى أن الوقت قد تأخر ، ولم يكن قد انتبه إلى مروره ، أحس بغتة بالتعب الشديد ، وفكر : لم أعد قادراً على تحمل المزيد ، ودون أن يتمكن من كبح نفسه ، وبفعل الإنهاك العصبي ، بدأ بالنحيب ، ثم صار بكاء منفلتاً ، أشبه بالنشيج ، فهو يقف هناك ، كما لو أنه عاد ليكون مجدداً ، في مدرسة أخرى ، ذلك الصبي في أحد الصفوف الأولى

الذي اقترف مشاغبة واستدعاه المدير ليتلقى العقاب الذي يستحقه . ألقى بالمعطف المبلل على الأرض ، أخرج المنديل من جيب بنطاله ورفعه إلى عينيه ، ولكن المنديل كان مبتلاً مثل كل شيء ، فكل شخصه ، من رأسه إلى قدميه ، وقد لاحظ ذلك الآن ، كان كمن ينز ماء ، كما لو أنه كله ليس سوى ممسحة مفتولة تُعصر ، جسده متسخ ، روحه موجوعة، وكلاهما تعس . ما الذي أفعله هنا ، تساءل ، ولكنه لم يشأ الرد ، فقد خشي أن يبدو له السبب الذي قاده إلى هذا المكان ، إذا كشف عنه بهذه الصورة المجردة ، سخفاً ، وتفاهة ، وعملاً مجنوناً . هزته قشعريرة مفاجئة ، لقد أُصبتُ بالزكام ، قال ذلك بصوت عال ، بعد أن عطس مرتين ، وبعد ذلك ، بينما هو ينف أنفه ، وجد نفسه يتذكر ، عبر درب نزوي لتفكير يمضي حيث يشاء دون تقديم أي تفسير ، أولئك الممثلين السينمائيين الذين يسقطون في الماء دوماً وهم بملابسهم أو يظهرون وهم يقطرون تحت وابل من المطر ، ولا يصابون قط بنزلة صدرية ولا حتى بمجرد الرشح ، مثلما يحدث كل يوم في الحياة الواقعية ، وما يفعلونه ، في أقصى الحالات ، هو التدثر ببطانية فوق ملابسهم المبتلة ، وهي فكرة ستكون في منتهى الحماقة إذا نحن لم نعرف بأن التصوير يتوقف لكي يُؤخذ الممثل إلى قمرة ، فيستحم في حمام دافئ ويرتدي البرنس الذي يحمل الحروف الأولى من اسمه . بدأ دون جوزيه بخلع حذائه ، ثم خلع بعد ذلك السترة والقميص ، وخلع بنطاله وعلقه على شماعة قائمة في أحد الأركان ، ولم يعد ينقصه الآن إلا أن يتمكن من أن يتدثر ببطانية الفيلم ، وهي إكسسوار يصعب العثور عليه في مكتب مدير المدرسة ، اللهم إلا إذا كان المدير شخصاً متقدماً في السن ، من أولئك الذين تبرد أقدامهم عندما يجلسون لوقت طويل . روح دون جوزيه الاستدلالية قادته ، مرة أخرى ، إلى النتيجة الصائبة ، فقد كانت البطانية مطوية بعناية فوق مسند المقعد . لم تكن كبيرة ، وهي لا تكفي

لأن تدثره بالكامل ، ولكنها أفضل من أن يمضي الليل بجسد عارٍ . أطفأ دون جوزيه نور السقف ، واسترشد بالمصباح اليدوي ، وتمدد ، وهو يتنهد ، على الأريكة ، ثم انكمش على نفسه بعد ذلك بحيث يلتحف بكامله تحت البطانية . كان ما يزال يرتعش ، فالملابس الداخلية التي ما زالت على جسده رطبة ، ربما كان التعرق هو السبب ، الجهد المبذول ، لأنه لا يمكن للمطر أن يكون قد تغلغل إلى ذلك الحد . جلس على الأريكة ، تخلص من القميص والسروال الداخليين ، خلع جوربيه ، ثم التحف بالبطانية وكأنه يريد أن يجعل منها جلداً ثانياً له ، وبينما هو ملتف على نفسه مثل دودة قز ، غرق في ظلمة المكتب ، آملاً أن يأتيه القليل من رحمة الدفء لتنقله إلى رحمة النوم . تأخر أولهما ، وتأخر الآخر ، يبعدهما خاطر لم يشأ مفارقة رأسه ، وماذا إذا ما جاء أحدهم ووجدني في هذه الحال ، وكان يقصد عارياً ، سيستدعى له الشرطة ، ويضعون القيد في معصميه ، سيسألونه عن اسمه ، عن سنه ، عن مهنته ، وسيأتي مدير المدرسة أولاً ثم يأتي رئيس المحفوظات العامة بعد ذلك ، وسينظران إليه بإدانة قاسية ، ما الذي تفعله هنا ، سيسألانه ، ولن يجد صوتاً للرد عليهما ، لا يمكنه أن يوضح لهما بأنه يبحث عن امرأة مجهولة ، فمن المؤكد أنهما سينفجران في الضحك ، وسيعودان إلى سؤاله ، ماذا تفعل هنا ، ولن يتوقفوا عن السؤال إلى أن يعترف بكل شيء ، والدليل على ذلك أنهما واصلا ترديد السؤال في أثناء الحلم عندما تمكن دون جوزيه ، أخيراً ، مع قدوم الصباح ، من هجر الأرق المنهك ، أو عندما هجره الأرق .

استيقظ متأخراً ، وكان يحلم بأنه في مستودع المهملات مرة أخرى ، وبأن المطر يهطل عليه بدوي شلال ، وأن المرأة المجهولة ، في وضعية ممثلة سينمائية من مجموعته ، تجلس على حافة النافذة وبطانية المدير مطوية في حضنها ، تنتظر أن ينتهي من الصعود وهي تقول له في الوقت نفسه ، كان من الأفضل أن تطرق الباب الرئيسي ، وقد رد على

ذلك وهو يلهث ، لم أكن أعرف أنك هنا ، فتقول هي ، إنني موجودة دوماً، لا أخرج مطلقاً ، وتبدو بعد ذلك كما لو أنها تنحني لتساعده على الصعود ، ولكنها اختفت فجأة ، واختفت معها الظُلّة كذلك ، ولم يبق سوى المطر ، يهطل ، يهطل دون توقف على مقعد رئيس المحفوظات العامة، حيث رأى دون جوزيه نفسه جالساً . كان رأسه يؤلمه قليلاً ولكن الرشح لم يتفاقم كما يبدو . كانت تتسلل من خلال قماش الستائر صفيحة رقيقة جداً من ضوء ضارب إلى الرمادي ، هذا يعني أن الستائر ، على عكس ما اعتقده ، لم تكن مسدلة بالكامل . وفكر ، لا بد أن أحداً لم يتنبه إلى ذلك ، وقد كان على حق ، فضوء النجوم مبهر إلى أقصى الحدود ، ولكن معظمه لا يضيع في الفضاء وحسب ، وإنما يمكن كذلك لغمامة بسيطة أن تحجب عن عيوننا ما يتبقى من ذلك الضوء . ويمكن لجار في الجهة المقابلة ، إذا ما نظر من النافذة ليرى حالة الجو ، أن يفكر في أن ذلك الخيط المضيء الذي ينوس بين قطرات المطر المنزلقة على الزجاج ، ليس إلا وميضاً من المطر نفسه . وبينما هو يتدثر بالبطانية، أزاح دون جوزيه الستارة قليلاً ،فقد جاء دوره ليعرف كيف هي حالة الجو .لم يكن المطر يهطل في تلك اللحظة ، ولكن السماء بدت مغطاة كلها بغيمة واحدة قاتمة ، وشديدة الانخفاض إلى حد تبدو معه وكأنها تلامس الأسطح ، مثل بلاطة هائلة . ففكر ، هذا أفضل ، فكلما قل تواجد الناس في الشارع ، يكون أفضل . ذهب ليجس الثياب التي خلعها ويرى إذا ما كانت في حالة يمكن معها لبسها . كان القميص ، والقميص والسروال الداخليان ، والجوربان قد جفت إلى حد مقبول ، والبنطال بدرجة أقل ، أما السترة والمعطف ، فيحتاجان لساعات طويلة ليجفا . ارتدى كل شيء باستثناء البنطال ، ليتجنب احتكاك النسيج المتيبس من الرطوبة بركبتيه المخدشتين ، ومضى بحثاً عن حجرة الإسعاف . لا بد لها ، منطقياً ، من أن تكون في الطابق السفلي ، على مقربة من قاعة الرياضة

والحوادث تختص بها ، بجوار الباحة ، حيث يُخمد التلاميذ ، في الفسحة بين الدروس ، طاقتهم وضجرهم وجزعهم من الدراسة ، في ألعاب على هذه الدرجة أو تلك من العنف . وقد أصاب في تقديره . بعد أن غسل جراحه بماء الأكسجين ، وضع عليها معقماً له رائحة اليود وضمدها بعناية وبمبالغة كبيرة في استخدام الضمادات واللصاقات حتى بدا وكأنه يضع لركبتيه واقيتين من الصدمات . ولكنه كان قادراً مع ذلك على ثني مفصلي ركبتيه بما يكفي للمشي ، ارتدى بنطاله وأحس أنه رجل آخر ، ولكن ليس إلى الحد الذي يجعله ينسى التوعك الذي يعم جسده البائس . وفكر ، لا بد أن يكون هنا شيء مضاد لهذا الرشح وألم الرأس ، وبعد ذلك بقليل ، وكان قد وجد ما يحتاج إليه ، ابتلع قرصي دواء استقرا في معدته . لم يعد بحاجة إلى اتخاذ الاحتياطات كي لا يُرى من الخارج ، لأن زجاج نافذة غرفة الإسعاف ، مثلما هو متوقع ، لم يكن شفافاً أيضاً ، إنما عليه أن يتوخى الحذر منذ الآن في كل تحركاته ، فلا شيء من السهو ، تجنب الابتعاد عن وسط القاعات ، والتنقل منحنياً عند اضطراره إلى الاقتراب من إحدى النوافذ ، والتصرف ، باختصار ، كما لو أنه لم يمارس في حياته شيئاً آخر سوى عمليات السطو على البيوت . ذكّرته حرقة مفاجئة في المعدة بالخطأ الذي ارتكبه حين ابتلع قرصي الدواء دون أن يرفقهما بقليل من الطعام ، ولو مجرد قطعة صغيرة من البسكويت ، حسن ، وأين يوجد بسكويت هنا ، تساءل وهو يدرك أن لديه الآن مشكلة جديدة عليه أن يجد حلاً لها ، إنها مشكلة الطعام ، خصوصاً وأنه لن يستطيع الخروج من المبنى قبل حلول الليل ، وحدد ، الليل المطبق . ومع أن المعني ، مثلما نعرف ، هو شخص قنوع في مسائل الغذاء ، إلا أنه عليه أن يهدئ شهيته ريثما يعود إلى البيت ، ومع ذلك فقد رد دون جوزيه على حاجته تلك بهذه الكلمات المتقشفة ، يوم واحد لن يكون أياماً ، ولا أحد يموت من قضاء بضع ساعات دون طعام . خرج من غرفة الإسعاف ، وبالرغم من أن

مكتب السكرتارية ، حيث عليه القيام ببحثه ، كان في الطابق الثاني ، إلا أنه قرر ، لمحض الفضول ، القيام بجولة في منشآت الطابق الأرضي . وجد على الفور قاعة التمارين الرياضية ، وما فيها من خزائن الملابس ، وأجهزة تمارين الظهر وغيرها ، العارضة الثابتة ، العقلة ، حصان الوثب ، لوح القفز ، الحشايا ، في مدارس أزمنته لم تكن تُشاهد مثل هذه الأدوات الرياضية المتقنة ، وما كان ليرغب فيها لنفسه ، على ما كان عليه آنذاك وما يزال عليه اليوم ، وهو يطلقون عليه عموماً تسمية ضعف البنية . كانت حرقة معدته تزداد حدة ، وراحت تصعد إلى فمه موجة حموضة لذعت حنجرته ، ليت القرصين ينفعان على الأقل في التخفيف من ألم رأسه، ومن الرشح ، من المحتمل أنني محموم ، فكر في ذلك وهو يفتح باباً آخر . كانت تلك ، ولتتبارك روح الفضول ، قاعة الطعام . عندئذ نمت لأفكار دون جوزيه أجنحة ، وسارعت متعجلة وراء الطعام ، ما دامت هناك قاعة طعام ، فلا بد من وجود مطبخ ، وإذا كان ثمة مطبخ ، ولم يحتج إلى متابعة التفكير ، فها هو ذا المطبخ ، بمواقده ، وقدوره ، وقلاياته ، وبأطباقه وكؤوسه ، بخزائنه وثلاجته الضخمة . وإليها توجه ، فتحها على مصراعيها ، وظهرت الأطعمة تتألق مشعة ، فليتبارك مرة أخرى إله الفضوليين ، وأيضاً إله لصوص السطو الذي لا يقل جدارة عن ذاك في بعض الأحيان . بعد ربع ساعة من ذلك ، كان دون جوزيه قد تحول نهائياً إلى رجل آخر ، متماسك الجسد والروح ، ملابسه ناشفة تقريباً ، ركبتاه متعافيتان ، ومعدته تعمل مشغولة بشيء مغذٍ ومقيم للأودِ أكثر من قرصين مرّين مضادين للرشح . سيعود في موعد الغداء إلى هذا المطبخ ، إلى هذه الثلاجة الإنسانية ، أما الآن فعليه البحث في أدراج بطاقات السكرتارية ، عليه أن يتقدم خطوة أخرى ، وسيعرف إذا ما كانت خطوة طويلة ، أم قصيرة ، من خلال التحري عن ظروف حياة المرأة المجهولة التي كانت تجلس ، قبل ثلاثين سنة ، وهي طفلة ذات عينين جديتين وناصية

شعر تتهدل فوق حاجبيها ، على ذلك المقعد لتأكل وجبتها من الخبز والسفرجل ، ربما وهي حزينة ، ربما لإحساسها بالذنب للطخة الحبر التي سقطت على الورقة ، وربما سعيدة لأن عرابتها وعدتها بدمية .

كان العنوان المدون على الدُرج واضحاً :أسماء التلاميذ وفق الترتيب الأبجدي ، وكانت هناك أدراج أخرى عليها كتابات مختلفة: تلاميذ الصف الأول ، تلاميذ الثاني ، تلاميذ الثالث ، وهكذا على التوالي حتى السنة المدرسية الأخيرة . قدرت روح دون جوزيه المهنية عالياً ذلك النظام في التصنيف ، المنظم بطريقة تُسهل الوصول إلى بطاقات التلاميذ عبر سبيلين يلتقيان ويتكاملان ، أحدهما عام ، والآخر خاص . وكان هناك درج منفصل يتضمن بطاقات الأساتذة ، وفق ما يمكن قراءته في الكتابة التي تدل على محتواه : الأساتذة . وما إن رآه حتى تحركت ، على الفور ، في روح دون جوزيه ، مسننات آليته الاستنتاجية الفعالة ، وفكر ، أجل ، من المنطقي توقع أن يكون الأساتذة الذين في الدرج هم من يمارسون عملهم حالياً ، وبالتالي فإن بطاقات التلاميذ ، بمقتضى تناسق توثيقي محض ، تعني برواد المدرسة الحاليين ،فضلاً عن أنه يمكن لأي شخص أن يرى أن بطاقات التلاميذ خلال ثلاثين سنة دراسية ،حتى في أدنى التقديرات ، لا يمكن مطلقاً أن تستوعبها نصف دزينة الأدراج هذه ، مهما كان كرتون البطاقات المستخدمة رقيقاً . ودون التعلق بأية آمال ، وإنما لمجرد تهدئة ضميره ، فتح دون جوزيه الدرج الذي يجب ، وفق الترتيب الأبجدي ، أن تتواجد فيه بطاقة المرأة المجهولة . فلم تكن موجودة . أغلق الدرج ، نظر في ما حوله ، وفكر ، لا بد أن يكون هناك أرشيف بطاقات آخر للتلاميذ القدماء ، من المستحيل أن يتلفوها بعد أن ينهي التلاميذ سنواتهم المدرسية ، لأن ذلك سيكون انتهاكاً لأدنى قواعد التوثيق . إذا ما كان مثل هذا الأرشيف موجوداً ، فلن يكون مكانه هنا ، وبعصبية، وبالرغم من إدراكه عدم جدوى البحث ، فتح الخزائن وأدراج الطاولات .

لا شيء . بدأ رأسه ، وكأنه لم يستطع تحمل الإحباط ، يؤلمه أكثر فأكثر. تساءل ، وماذا الآن يا جوزيه ، وردّ ، الآن إلى البحث .خرج من السكرتارية ، نظر إلى أحد جانبي الممر الطويل ثم إلى الجانب الآخر . لا وجود هنا لقاعات دروس ، وبالتالي فإن تقسيمات هذا الطابق يجب أن تضم ، إضافة إلى مكتب المدير ، استخدامات أخرى ، واحدة منها ، مثلما تبين له على الفور ، هي قاعة الأساتذة ، وحجرة أخرى تستخدم كمخزن لما يبدو أنه مواد مدرسية خارج الاستخدام ، بينما تضم الحجرتان الأخريان شيئاً ، مرتباً في صناديق على رفوف الخزائن الكبيرة ، وله كل المظهر الذي يوحي بأنه الأرشيف التاريخي للمدرسة . تهللت أسارير دون جوزيه ، ولكن ، وهذه هي ميزة ، أو نكبة ، من يملك تجربة في مهنته ، من وجهة نظر الأمل الذي ضاع للتو ، إذ أن بضع دقائق كانت كافية ليتأكد من أنه لن يجد ضالته هناك أيضاً ،فقد كان الأرشيف من النوع البيروقراطي المحض ، فهناك الرسائل الواردة ، ونسخ عن الرسائل الصادرة ، وهناك إحصاءات ، وجداول الدوام ، ورسوم بيانية للقدرات الاستيعابية التعليمية ، ومجلدات تشريعات . أعاد البحث مرة ، مرتين ، دون جدوى . خرج يائساً إلى الممر ، كل هذا الجهد الكبير مقابل لا شيء ، قال ذلك ، ثم أجبر نفسه ، مرة أخرى ، على الانصياع للمنطق ، مستحيل ، لا بد لتلك البطاقات اللعينة من أن تكون في مكان ما ، فما دام هؤلاء الناس لم يتلفوا مراسلات مضت عليها كل هذه السنوات ، وهي مراسلات لم تعد تنفع في شيء ، فلا يمكن لهم أن يكونوا قد أتلفوا بطاقات التلاميذ ، وهي وثائق في غاية الأهمية للسير الحياتية ، ولست أستغرب أن يكون بعض من تشملهم مجموعتي قد مروا في هذه المدرسة . ولو كان دون جوزيه في ظروف أخرى ، فربما فكر في أنه سيكون من المشوق ، مثلما خطرت له فكرة إغناء قصاصاته بنسخ من شهادات الميلاد ، أن يضيف الوثائق المتعلقة بدرجة ومستوى قدرات

مشهوريه المدرسية . وهذا على أي حال لن يكون أكثر من حلم يستحيل تحقيقه .فالحصول على وثائق الميلاد المتوفرة على بُعد شبر منه ، في المحفوظات العامة ، هو شيء ، وشيء آخر مختلف تماماً المضي في جنبات المدينة للسطو على المدارس لمجرد معرفة إذا ما كان فلان قد حصل على خمس درجات أم ثمان في رياضيات السنة الرابعة ، وإذا كان فلان عديم الانضباط حقاً مثلما التباهي في مقابلاته الصحفية . وإذا كان سيعاني في الدخول إلى كل مدرسة مثل ما عانى في هذه ، فمن الخير له أن يبقى قابعاً في ركود بيته ،قانعاً بالاكتفاء بأن يعرف من العالم تلك الأشياء التي يمكن ليديه أن تصلا إليها دون الخروج ، أي الكلمات ، والصور ، والأوهام .

دخل دون جوزيه ثانية إلى الأرشيف وهو مصمم على حسم الأمر نهائياً ،قال : إذا كان المنطق ما يزال سائداً في هذا العالم فلا بد للبطاقات من أن تكون هنا . راح يفتش رفوف القسم الأول ، صندوقاً بعد آخر ، وكومة فكومة ،وكأنه يمر عليها بمشط ناعم ، وهذه طريقة في التعبير ترجع أصولها دون ريب إلى الزمن الذي كان الناس فيه مضطرين إلى تسريح شعورهم بالمشط المذكور ، والذي يسمى أيضاً مشط الصئبان ، لأنه قادر على التقاط ما يمكن أن يفلت من المشط العادي ، ولكن المحاولة كانت غير مجدية مرة أخرى ، فليس هناك بطاقات .بلى ، إنها موجودة ، أجل ، محشورة بإهمال في صندوق كبير ، ولكنها بطاقات السنوات الخمس الأخيرة فقط . وبينما هو مقتنع الآن بأن البطاقات الأخرى قد أُتلفت أخيراً ،مُزقت ، أُلقيت في القمامة ، هذا إذا لم تكن قد أُحرقت ، وبعد أن فقد الأمل ، دخل دون جوزيه إلى القسم الثاني بلامبالاة من يقتصر على إنجاز واجب غير مجدٍ . ومع ذلك ، فإن عينيه أشفقتا عليه ،مع أن الفعل غير مناسب على الإطلاق في هذا المقلم ، ولكنه مهما حاول لن يجد تفسيراً لواقع أن يُوضع أمامه ،مباشرة ، ذلك

الباب الضيق ما بين خزانتين ، كما لو أن عينيه تعرفان ، منذ البدء ، أنه هناك . ظن دون جوزيه أنه قد وصل إلى نهاية أعماله ، إلى تتويج جهوده ، معترفاً ، في الحقيقة ، بأن حدوث عكس ذلك سيكون قسوة غير مقبولة من القدر ، ولا بد أن يكون ثمة مبرر لدى الشعب حين يُلح في التأكيد ، بالرغم من معاكسات الحياة ، على أن سوء الحظ ليس هو وحده ما يختبئ وراء الباب ، فوراء هذا الباب ، على الأقل ، وكما في الحكايات القديمة ، يجب أن يكون ثمة كنز ، حتى وإن كان الوصول إليه يتطلب مصارعة التنين . وهذا التنين ليس له أشداق تقطر لعاب الغضب ، ولا يقذف الدخان والنار من منخريه ، ولا يطلق زمجرات كأنها الهزات الأرضية ، إنه بكل بساطة ظلمة تقبع منتظرة بسكون ، ظلمة كثيفة وصامتة مثل قاع البحر ، هناك أشخاص مشهورون بأنهم شجعان لا يتجرؤون على المرور من هنا ، بل إن بعضهم يهربون على الفور ، مذعورين ، يتملكهم الخوف من أن يُنشب ذلك المخلوق الدنس مخالبه في حلوقهم . ومع أنه ليس بالشخص الذي يمكن أن يشار إليه كنموذج أو قدوة في الشجاعة ، إلا أن دون جوزيه ، بعد سنوات عمله المتراكمة في المحفوظات العامة ، اكتسب معرفة بالليل ، بالظل ، بالظلام ، بالعتمة ، انتهت به إلى التعويض عن حيائه الطبيعي ، وهي تتيح له الآن ، دون خوف مفرط ، أن يمد ذراعه عبر جسد التنين بحثاً عن مفتاح الضوء الكهربائي . وجده ، أداره ، ولكن لم يشتعل أي نور . جرجر قدميه لكي لا يتعثر ، وتقدم قليلاً إلى أن اصطدم كاحل رجله اليمنى بحافة قاسية. انحنى ليتلمس ذلك العائق ، وفي الوقت الذي عرف فيه أنها درجة معدنية ، أحس بحجم المصباح اليدوي في جيبه ، هذا المصباح الذي كان قد نسيه وسط كل تلك الانفعالات المتناقضة . وجد أمامه سلّماً حلزونياً يصعد باتجاه ظلمة أشد كثافة من تلك التي عند عتبة الباب وقد ابتلعت بؤرة ضوء المصباح قبل أن تتمكن من كشف الطريق إلى أعلى . لم يكن

للسلّم درابزين ، وهو بالضبط ما لا يناسب شخصاً يعاني الدوار ، فعند الدرجة الخامسة ، إذا قيض له الوصول إليها ،سيفقد دون جوزيه إحساسه بالارتفاع الحقيقي الذي هو فيه ويسقط مغمياً عليه ، وسيسقط لم يحدث الأمر على هذا النحو .لقد تحول دون جوزيه إلى شخص مضحك ، ولكن لا أهمية لذلك ، فهو وحده من يعرف مدى عبثية وعقم ما يفعله ، ولا يمكن لأحد أن يراه وهو يزحف صاعداً السلم مثل حرذون لم يستيقظ بعد تماماً من بياته الشتوي .كان يتشبث جزعاً بالدرجات ، واحدة بعد أخرى ،وجسده يحاول أن يجاري الانحناء الحلزوني الذي يبدو أنه لن ينتهي أبداً ، بينما ركبتاه تتعذبان مرة أخرى . عندما لمست يدا دون جوزيه ، أخيراً ، أرضية السقيفة الملساء ، كانت قوى جسده قد خسرت المعركة منذ زمن ضد الروح المذعورة ، ولهذا لم يستطع النهوض فوراً ،فبقي ممدداً ، هكذا ، على بطنه ، قميصه ووجهه يقبعان على الغبار الذي يغطي الأرضية ،وساقاه تتدليان على درجات السلّم ، يا للعذاب الذي يتوجب أن يعانيه أولئك الذين يخرجون من طمأنينة بيوتهم ليحشروا أنفسهم في مغامرات مجنونة .

بعد بضع دقائق ، وكان ما يزال مطروحاً على بطنه ، لأنه لم يكن عديم التعقل بحيث يرتكب عملاً متهوراً بالوقوف على قدميه وسط الظلام ، مع ما ينطوي عليه ذلك من مجازفة أن تزل به قدمه ويسقط موهناً في الهوة التي جاء منها . تلوى دون جوزيه بجسده ، بمشقة ، وتمكن مرة أخرى من إخراج المصباح اليدوي من جيب بنطاله الخلفي . أضاءه ومرّ بالنور على الأرضية التي أمامه . كانت هناك أوراق مبعثرة ، صناديق كرتونية ، بعضها ممزقة ، وأخرى مغطاة بالغبار . وعلى بُعد بضعة أمتار ميّز ما بدا له قوائم كرسي . رفع ضوء المصباح قليلاً ،وكان كرسياً بالفعل . بدا في حالة جيدة ، سواء مقعده أو مسنده ، وفوقه ، يتدلى من السقف الواطئ ، مصباح دون كمة ، ففكر دون جوزيه ، مثل مصباح المحفوظات

العامة . وجه بؤرة الضوء نحو الجدران المحيطة ، فظهرت له كتل خزائن متهربة ذات رفوف تلف المقصورة كلها . لم تكن رفوفاً عالية ، ولا يمكن لها أن تكون كذلك بسبب ميلان السقف ، وكانت محملة بفائض من الصناديق وبأكوام من التقارير الورقية . أين عساه يكون مفتاح النور ، تساءل دون جوزيه ، وجاءه الجواب الذي كان يتوقعه ، إنه في الأسفل وهو معطل ، بهذا المصباح اليدوي وحده لا أظن أنه سيكون بالإمكان العثور على البطاقات ، فضلاً عن أن قلبي يحدثني بأن بطاريته في الرمق الأخير ، كان عليك أن تفكر في ذلك من قبل ، ربما يكونون قد وضعوا مفتاحاً آخر للنور هنا ، حتى وإن كان الأمر كذلك ، فقد رأينا أن المصباح نفسه معطوب ، لسنا نعرف ذلك ، لو لم يكن معطوباً لأضيء ، الشيء الوحيد الذي نعرفه هو أننا أدرنا المفتاح ولم يضاء النور ، هذا يعني أنه معطوب ، ويمكن له أن يعني شيئاً آخر ، ماذا ، أنه لا وجود لمصباح في الأسفل ، إنني ما أزال على حق إذن ، فهذا المصباح الذي هنا معطوب ، ليس هناك ما يؤكد لنا عدم وجود مفتاحين ومصباحين ، مصباح على السلّم وآخر في السقيفة ، المصباح الذي في الأسفل معطوب ، أما الذي في الأعلى فما زلنا لا نعرف وضعه ، بما أنك قادر على استنتاج ذلك ، فاكتشف إذن مفتاح هذا المصباح . ترك دون جوزيه الوضع غير المريح الذي ما يزال فيه وجلس على الأرض . سأخرج من هنا بثياب في حالة مزرية ، فكر في ذلك ، ووجه ضوء المصباح إلى أقرب الجدران من فتحة السلم ، إذا كان موجوداً ، فلا بد أن يكون هنا . واكتشفه في اللحظة التي كان يقترب فيها من التوصل إلى النتيجة المحبطة لهمته بأن مفتاح النور الوحيد هو الذي في الأسفل . فعندما وضع يده الطليقة مصادفة على الأرض لكي يستند بصورة أفضل ، اشتعل ضوء السقف ، فالمفتاح ، وهو من تلك المفاتيح ذات الأزرار ، كان مثبتاً على الأرضية بحيث يكون على الفور في متناول من يصعد السلم . لم يكن ضوء المصباح اليدوي الأصفر

يكاد يصل إلى الجدار الذي في العمق ، ولم تكن تظهر على الأرضية آثار أقدام . وبتذكره التواريخ التي رآها في الأسفل ، قال دون جوزيه بصوت عالٍ ، منذ ست سنوات على الأقل لم يدخل أحد إلى هنا . وعندما تلاشى الصوت ، لاحظ دون جوزيه أن صمتاً عميقاً قد خيم على السقيفة ، كما لو أن الصمت السابق يضم في جنباته صمتاً أكبر ، لا بد أنها حشرات الخشب وقد أوقفت نشاطها في الحتّ . كانت تتدلى من السقف شِباك عنكبوت مسودّة من الغبار ، ولا بد أن أصحابها قد ماتوا منذ زمن بعيد لانعدام الأكل ، إذ لا وجود هنا لما يمكن أن يجتذب ذبابة تائهة ، خصوصاً وأن الباب السفلي مغلق ، وأما عث الورق واللواحس ومثلها سوس عوارض السقف ، فلم يكن لديها أي مبرر للانتقال إلى العالم الخارجي متخلية عن أروقة السيليلوز التي تعيش فيها . نهض دون جوزيه ، وحاول عبثاً أن ينفض الغبار عن قميصه وبنطاله ، كان وجهه يبدو كوجه مهرج غريب الأطوار بتلك البقعة الكبيرة التي تغطي جانباً واحداً فقط من الوجه . جلس على الكرسي ، تحت المصباح ، وبدأ يحدث نفسه : فلنفكر في تعقل ، قال ، فنحكّم العقل ، إذا ما كانت البطاقات هنا ، وكل شيء يشير إلى أنها كذلك ، فمن غير المحتمل العثور على بطاقات كل تلميذ منفصلة على حدة ، أي أن تكون بطاقات كل تلميذ مجتمعة كلها معاً بحيث يمكن متابعة كامل مسيرته المدرسية في نظرة واحدة ، والاحتمال المؤكد هو أن السكرتارية ، لدى انتهاء كل سنة دراسية ، تصنع حزمة من كل بطاقات تلك السنة وتكدسها هنا ، ولا أظن حتى أنهم يزعجون أنفسهم في حفظها في صناديق ، أو ربما يفعلون ذلك ، ولسوف نرى ، وآمل ، إذا كان الأمر كذلك ، أن يكونوا قد سجلوا عليها من الخارج السنة التي تنتمي إليها ،وسواء أكان الأمر على هذا النحو أم ذاك ، فلن يكون سوى مسألة وقت وصبر . لم تضف النتيجة شيئاً مهماً إلى المقدمات ، فدون جوزيه يعلم ، منذ بداية حياته ، بأنه لا يحتاج إلا إلى

وقت لكي يستخدم الصبر ، وهو يأمل منذ البداية ألا يفتقر الصبر إلى الوقت . نهض واقفاً ، ولوفائه لقاعدة أنه من الأفضل ، في كل عمليات البحث ، البدء دوماً من أحد الأطراف ثم التقدم بمنهجية وانضباط ، فقد انقض على العمل من أقصى أحد صفوف الخزائن ذات الرفوف ، مصمماً على ألا يترك ورقة فوق ورقة دون التأكد مما إذا لم تكن هناك ، بين العلوية والسفلية ، ورقة أخرى مخبأة . فتحُ صندوق ، أو فكُّ إحدى الرزم ، أو أي حركة أخرى يقوم بها كانت تثير سحابة من الغبار ، إلى حد أنه اضطر ، كي لا يختنق ، إلى ربط المنديل فوق أنفه وفمه ، وهو أسلوب وقائي يتوجب على الكتبة اتباعه كلما دخلوا أرشيف الموتى في المحفوظات العامة . وخلال دقائق قليلة صارت يداه سوداوين ، وفقد المنديل بقع البياض القليلة المتبقية فيه ، لقد تحول دون جوزيه إلى عامل في منجم فحم يأمل بالعثور في أعماق المنجم على الفحم النقي لقطعة من الماس .

ظهرت البطاقة الأولى بعد نصف ساعة من البحث . وكانت الطفلة في هذه البطاقة قد تخلت عن تسريح شعرها بترك خصلة منه تتهدل على جبهتها ، ولكن العينين ، في هذه الصورة الملتقطة لها وهي في الخامسة عشرة ، تحتفظان بملمح التوازن المؤلم نفسه . وضعها دون جوزيه بعناية على الكرسي وواصل البحث . كان يعمل بنوع من الحلم ، مدققاً ، محموماً ، ومن بين أصابعه يفر العث مذعوراً من النور ، وشيئاً فشيئاً ، كما لو أنه ينبش بقايا قبر ، راح الغبار الناعم يخترق ملابسه ويعلق ببشرته . في البدء ، عندما تظهر له حزمة من البطاقات ، كان يمضي على الفور إلى ما يعنيه ، ولكنه بدأ بعد ذلك يتمهل متمعناً في الأسماء ، في الصور ، لا لشيء إلا لأنه هناك ، ولأن أحداً لن يعود إلى دخول هذه السقيفة لينفض الغبار الذي يغطي مئات ، بل آلاف وجوه الفتيان والفتيات الذين ينظرون مواجهة إلى العدسة الشيئية ، إلى الجانب الآخر

للعالم ، بانتظار ما لا يعلمونه . الحال في المحفوظات العامة ليس على هذا النحو ،ففي المحفوظات العامة لا توجد إلا الكلمات ، في المحفوظات العامة لا يمكن رؤية كيف تغيرت الوجوه أو كيف هي آخذة بالتغير ،في حين أن هذا هو بالضبط الأمر الأكثر أهمية ،ما يبدله الزمن ، وليس الاسم الذي لا يتبدل مطلقاً . عندما بثت معدة دون جوزيه إشاراتها، كانت قد اجتمعت على الكرسي سبع بطاقات ، اثنتان منها عليهما الصورة نفسها ، لا بد أن أم الطفلة قالت لها ، خذي صورة السنة الماضية هذه ، فلستِ بحاجة للذهاب إلى المصور ، وأخذت هي الصورة ، يغمرها الحزن لأنها لم تحصل هذه السنة على صورة جديدة . وقبل أن ينزل دون جوزيه إلى المطبخ ، دخل إلى حمام المدير ليغسل يديه ، ووقف مذهولاً عندما رأى نفسه في المرآة ، لم يكن يتصور بأن يكون وجهه بتلك الحال ، متسخاً ،تخدده مسايل العرق ، وفكر ، لا أبدو أنني أنا ، وربما لم أكن كذلك إلى هذا الحد من قبل قط . عندما انتهى من تناول الطعام ،صعد إلى السقيفة.مسرعاً بالقدر الذي تتيحه له ركبتاه ، فقد خطر له أنه إذا ما انقطع النور ، وهو احتمال يجب أخذه في الحسبان مع هذه الأمطار ، فلن يستطيع إنهاء بحثه . إذا افترضنا أنها لم ترسب في أي سنة دراسية، فإن عليه أن يجد خمس بطاقات أخرى فقط ، وإذا ما انقطع الضوء وبقي في الظلام ، فإن جهوده ، جزئياً ،ستضيع هباء ، لأنه لن يستطيع الدخول ثانية إلى المدرسة . وبينما هو مستغرق في العمل ،نسي ألم الرأس ، والرشح ، ولكنه كان في حالة أسوأ الآن . نزل ثانية ليتناول قرصي دواء آخرين ، ثم صعد مجرجراً قواه الواهنة ، وعاد إلى العمل . كان المساء يقترب من نهايته عندما وجد البطاقة الأخيرة . أطفأ ضوء السقيفة، وأغلق الباب ، ومثل مُنَوَّم ، لبس السترة والمعطف ، ومسح بأفضل ما يستطيع آثار أقدامه وجلس ينتظر حلول الليل .



في صباح اليوم التالي ، وما إن بدأ النشاط يدب في المحفوظات العامة ، واتخذ الموظفون أماكنهم ، حتى فتح دون جوزيه الباب الموصل بين بيته والمحفوظات بصورة مواربة ، وقال بست بست ليلفت انتباه أقرب زملائه الكتبة إليه . أدار الرجل رأسه ورأى وجهاً محتقناً ذا عينين زائغتين ، ماذا تريد ، سأله بصوت خافت كي لا يعكر سير العمل ، ولكنه أبرز في كلماته نبرة مؤنبة ساخرة ، كما لو أن فضيحة التغيب لم تأت إلا لتعطي الحق لمن كان التأخر قد فضحه ، فقال دون جوزيه ، إنني مريض ، ولا يمكنني المجيء إلى العمل . نهض الزميل متضايقاً ، ومشى ثلاث خطوات باتجاه مأمور قسمه ، وأعلمه ، عذراً يا سيدي ، الكاتب دون جوزيه هناك يقول إنه مريض . نهض المأمور بدوره ، ومشى أربع خطوات باتجاه نائب المدير المختص وأعلمه بالأمر ، عذراً يا سيدي ، الكاتب دون جوزيه هناك يقول إنه مريض . وقبل أن يسير الخطوات الخمس التي تفصله عن طاولة المدير ، اقترب نائب المدير ليتحرى طبيعة المرض ، سأله ، مم تشكو ، فردّ دون جوزيه ، لدي زكام ، لم يكن الزكام سبباً للتغيب عن العمل قط ، إنني محموم ، وكيف عرفتَ أنك محموم ، استخدمتُ ميزان الحرارة ، بضعة أعشار الدرجة فوق الحرارة الطبيعية ، لا يا سيدي ، لدي تسع وثلاثون درجة ، حالة رشح عادية لا ترفع درجة

الحرارة إلى هذا الحد ، قد أكون مصاباً بالانفلونزا ، أو ربما بالتهاب رئوي ، لا تكن نذير شؤم ، إنني أعرض احتمالاً وحسب ، ولستُ أتنبأ بأي شؤم ، اعذرني ، فقد كانت مجرد كلمة تقال ، وكيف وصلتَ إلى هذه الحال ، أظن أن السبب هو المطر الذي انهمر عليّ ، هذه عاقبة التصرفات الطائشة ، معك حق ، الأمراض الناجمة عن أسباب لا علاقة لها بالعمل لا تؤخذ في الاعتبار ، لم تكن إصابتي في أثناء قيامي بعملي في الواقع ، سأذهب لأُطلع الرئيس على الأمر ، أجل يا سيدي ، لا تغلق الباب ، فقد يرغب في توجيه بعض التعليمات إليك ، حاضر يا سيدي . لم يوجه الرئيس أية تعليمات ، واكتفى بالنظر من فوق رؤوس الموظفين المنحنية والإيماء بإشارة مقتضبة من يده ، وكأنه يزدري المسألة لتفاهتها أو كأنه يؤجل الاهتمام الذي سيوليها إياه إلى ما بعد ، ولم يكن بمقدور دون جوزيه ، من تلك المسافة ، أن يميز الفرق ، هذا إذا افترضنا أن عينيه الدامعتين والملتهبتين قد تمكنتا من رؤية الإيماءة . ويُفترض على أي حل ، أن يكون دون جوزيه قد أصيب بالذعر من تلك النظرة ، ودون أن يدري ما يفعل ، فتح الباب أكثر قليلاً مما كان عليه ، مُظهراً جسده بالكامل في المحفوظات العامة ، كان يرتدي روباً عتيقاً فوق بيجامته ، وقدماه محشورتان في خف بيتي ، ويبدو بالمظهر الذاوي لمن يعاني من زكام فظيع ، أو انفلونزا خبيثة ، أو نزلة رئوية قاتلة ، ومن يدري ، فكثيرة هي المرات التي انتهى بها نسيم لطيف إلى إعصار مدمر . عاد نائب المدير ليقول له إن الطبيب الرسمي سيزوره اليوم أو غداً ليفحصه ، ولكنه بعد ذلك ، ويا للروعة ، نطق بكلمات لم يسعد بسماعها يوماً أي موظف صغير ، هو أو سواه ، في المحفوظات العامة ، الرئيس يتمنى لك الشفاء ، وبدا على نائب المدير نفسه أنه لا يصدق ما يقوله . أما دون جوزيه المذهول ، فقد وجد ما يكفي من الجلد لينظر باتجاه المدير ، لكي يشكره على لفتته غير المتوقعة ، ولكن المدير كان يحني رأسه ، وكأنه منهمك في

العمل ، مع أن ذلك ، ونحن نعرف تقاليد العمل في المحفوظات العامة، أمر أكثر من مشكوك فيه . أغلق دون جوزيه الباب ببطء ، وبينما هو يرتجف من الانفعال والحمى ، اندس في السرير .

لم يكن قد تلقى ذلك المطر الذي انهمر عليه وهو فوق الظُلّة، يجاهد للدخول إلى المدرسة ،وحسب . لأن المسكين لم يكن يتصور ما الذي ينتظره حين خرج أخيراً ،بعد حلول الليل ، من النافذة ووصل إلى الشارع . لقد كان بانتظاره ما هو أقسى مما عاناه في التسلق ، فقبل كل شيء ، كان الغبار المتراكم في أرشيف السقيفة قد خلّفه في حالة من القذارة ، من رأسه حتى قدميه ، يستحيل وصفها ، فوجهه وشعره يغطيهما السواد ، ويداه مثل فرشاتين مسودتين ، ولا حاجة إلى التحدث عن الملابس ، فالمعطف المتضمخ بالشحم تحول إلى أسمال ، والبنطال كما لو أنه ممرغ بالقطران ، والقميص يبدو وكأنه قد استُخدم في تنظيف مدخنة تراكم سناجها منذ قرون ، بحيث يمكن لأي متسول ، حتى ولو كان يعيش في أقصى حالات العوز ، أن يخرج إلى الشارع بمظهر أكثر لياقة . وبعد أن ابتعد دون جوزيه عن المدرسة مجتازاً شارعين ، وكان المطر في أثناء ذلك قد انقطع ، استوقف سيارة أجرة ليعود إلى البيت ، وحدث عندئذ ما لا بد من حدوثه ، فحين رأى السائق تلك الهيئة السوداء تبرز له فجأة من أعماق الظلام ، أصيب بالذعر واندفع مسرعاً بسيارته . ولم تكن تلك هيَ المرة الوحيدة ، فثلاث سيارات أجرة أخرى ، أشار لها دون جوزيه بعد ذلك ، توارت مسرعة عند المنعطف وكأن شيطاناً يلاحقها . فلم يجد دون جوزيه بداً من الاستسلام والعودة إلى البيت ماشياً ، لأنه لم يعد يجرؤ الآن على الصعود إلى حافلة ، الصبر ، سيكون إنهاكاً آخر يضاف إلى هذا الذي يكاد لا يسمح له بجرجرة قدميه ، ولكن الأسوأ هو أن المطر ما لبث أن عاود الهطول بعد قليل ، ولم يتوقف طوال الطريق اللانهائي ، شوارع ، ساحات ، جادات ، عبر مدينة بدت وكأنها مقفرة ، وذلك الرجل

يقطر ، دون أن تكون معه ولو مظلة تقيه من المطر الغزير ، ويمكن فهم السبب ، فليس هناك من يأخذ معه مظلة وهو ذاهب إلى عملية اقتحام ، فالأمر مثل الحرب ، كان بإمكانه الاحتماء عند أحد الأبواب وانتظار توقف المطر ، ولكن ذلك لم يعد يستحق العناء ، إذ ليس بالإمكان أن يبتل أكثر مما هو عليه . عندما وصل دون جوزيه إلى البيت ، كان الجزء الوحيد الجاف إلى حد معقول من ملابسه هو جيب سترته ، الجيب الداخلي الأيسر ،حيث خبأ البطاقات المدرسية للطفلة المجهولة ، وكان يضع يده اليمنى فوقها طوال الوقت ، ليحميها من المطر ، ويمكن لمن يراه على تلك الحال أن يفكر ، خصوصاً بوجهه المعذب ، بأنه يعاني مرضاً في القلب . تعرى تماماً وهو يرتجف ، وكان يتساءل مشوشاً كيف سيحل مشكلة تنظيف تلك الملابس المكومة على الأرض ، لم تكن لديه بدلات ، وأحذية ، وجوارب ، وقمصان إلى الحد الذي يتيح له أن يرسل مجموعة الملابس دفعة واحدة إلى المصبغة ، وكأنه شخص مقتدر ، فهو سيحتاج بكل تأكيد إلى إحدى هذه القطع عندما سيرتدي في الصباح ما هو متبق لديه . قرر تجاهل هذه المشكلة إلى ما بعد ، لأن عليه الآن أن ينزع القذارة عن جسده ، والسيئ في ذلك هو أن سخان الماء يعاني من خلل في عمله ، إذ يمكن للماء أن يخرج ساخناً يغلي أو بارداً يجمِّد ، ومجرد تفكيره في ذلك بعث القشعريرة في جسده كله ، ولكنه غمغم بعد ذلك كمن يرغب في إقناع نفسه ، ربما كان ذلك جيداً للزكام ، دفقة ماء ساخنة ، ودفقة باردة ، مثلما يقال . دخل حجرة النوم التي يستخدم ركناً منها كغرفة استحمام ، نظر إلى نفسه في المرآة وأدرك سبب رعب سائقي سيارات الأجرة ، فلو كان في مكانهم لفعل الشيء نفسه ، الهرب من هذا الشبح ذي الحدقتين الغائرتين والفم الذي يسيل من جانبيه نوع من اللعاب الأسود . لم يسئ سخان الماء السلوك في هذه المرة ، فقد أطلق عليه دفقتي ماء باردتين في البدء ، وجاءت البقية بعد ذلك فاترة منعشة ،

وقد ساعدته بعض اللسعات السريعة الحارقة بين وقت وآخر في إذابة الوساخة . حين خرج من الحمام ، أحس دون جوزيه بالانتعاش ، وكأنه جديد ، ولكنه ما إن اندس في الفراش حتى عاودته نوبات القشعريرة ، عندئذ فتح درج الكوميدينو حيث يخبئ ميزان الحرارة . وقال بعد قليل ، تسع وثلاثون ، إذا ما بقيتُ هكذا إلى الغد ، فلن أستطيع الذهاب إلى العمل . وسواء أكان ذلك بفعل الحمى أم بفعل الإرهاق ، أو بتأثيرهما معاً ، فإن هذا الخاطر لم يقلقه ، ولم تبدُ له غريبة فكرة التغيب غير المعهود عن الخدمة ، ففي هذه اللحظة لم يكن يبدو على دون جوزيه أنه دون جوزيه ، أو أنهما دونا جوزيه اثنان مطروحان في السرير ، ببطانية مرفوعة حتى الأنف ، أحدهما دون جوزيه الذي فقد الإحساس بالمسؤولية ، ودون جوزيه الآخر الذي لم يعد يبالي بأي شيء من ذلك كله . وعلى النور المضاء ، أخذته الإغفاءة لبضع دقائق استيقظ بعدها مفزعاً وقد حلم بأنه ترك البطاقات فوق كرسي السقيفة ، وبأنه تركها متعمداً ، كما لو أنه لم يكن هناك من هدف آخر لمغامرته سوى البحث عنها والعثور عليها . وحلم أيضاً بأن هناك من دخل إلى السقيفة بعد أن خرج هو منها ، وأنه رأى رزمة الثلاثة عشرة بطاقة وتساءل ، أي سرّ هو هذا . نهض ذاهلاً ومضى للبحث عنها ، كان قد وضعها فوق المنضدة عندما أفرغ جيوب سترته ، ثم رجع بعد ذلك إلى الفراش . كانت البطاقات متسخة بآثار سوداء ، بل إن بعضها كانت تُظهر بصمات أصابعه بوضوح ، يتوجب عليه أن ينظفها غداً ليتجنب أي محاولة لتحديد هويته ، ثم فكر ، يا للبلاهة ، كل ما نلمسه يحتفظ ببصمات أصابعنا ، وإذا ما نظفت هذه الآثار فإنني سأخلف غيرها ، والفرق هو أن بعضها ظاهر ومرئي ، والأخرى غير مرئية . أغمض عينيه وعاد بعد قليل إلى الدخول في حالة الإغفاء ، تهدلت يداه اللتان تمسكان البطاقات برخاوة ، فوق اللحاف ، فسقط بعض البطاقات على الأرض ، وهناك كانت

صور فتاة في أعمار مختلفة ، من الطفولة وحتى المراهقة ، أُحضرت إلى هنا بعمل تعسفي ، فليس من حق أحد الاستيلاء على صور ليست له ، اللهم إلا إذا قُدمت إليه ،فحمل صورة شخص ما في الجيب هو أشبه بحمل شيء من روحه . حلم دون جوزيه ، الذي لم يستيقظ منه ، كان مختلفاً الآن ، فهو يرى نفسه ينظف آثار بصمات أصابعه التي خلّفها في المدرسة ، إنها موجودة في كل الأنحاء ، على النافذة التي دخل منها ، في غرفة العيادة ، في السكرتارية ، في مكتب المدير ، في قاعة الطعام ، في المطبخ ، في غرفة الأرشيف ، أما البصمات التي في السقيفة فقد رأى أنها لا تستحق أن يقلق بشأنها ، لأن أحداً لن يدخل هناك ليسأل بعد ذلك ، أي سرّ هو هذا ، ولكن السيئ في الأمر هو أن اليدين اللتين تنظفان الآثار المرئية تخلفان وراءهما أثراً غير مرئي ، فإذا ما قدم مدير المدرسة بلاغاً إلى الشرطة عن عملية الاقتحام وفُتح تحقيق جدي ، فإن دون جوزيه سيذهب إلى السجن ، وهذا مؤكد مثلما هو مؤكد أن اثنين زائد اثنين يساوي أربعة ، ولا بد من تصور فقدان الاعتبار والعار الذي سيلطخ إلى الأبد سمعة المحفوظات العامة للسجل المدني . استيقظ دون جوزيه عند انتصاف الليل وهو يتوقد بالحمى ، بدا أنه يهذي ، وكان يقول ، لم أسرق شيئاً ، لم أسرق شيئاً ،وكان ذلك صحيحاً ، لأنه ، إذا ما تحدثنا عن السرقة كسرقة ، لم يسرق أي شيء ، ومهما بحث المدير وتقصى ، ومهما كانت التقصيات ، والإحصاءات والمقارنات التي سيجرونها ، في قوائم جرد تفصيلية ، مادة بعد أخرى ، فإن النتيجة ستكون هي نفسها ، سرقة بمعنى السرقة لم تقع ، لا شك في أن مسؤولة المطبخ ستأتي قائلة إن هناك نقصاً في الطعام الذي في الثلاجة ، ولكن إذا افترضنا أن هذه هي الجريمة الوحيدة المقترفة ، فإن السرقة من أجل الأكل ، حسب الرأي السائد إلى هذا الحد أو ذاك ، لا تعتبر سرقة ، وحتى المدير نفسه يؤيد هذا الرأي ، الشرطة وحدها هي التي تتخذ منذ البداية رأياً مخالفاً ،مع أنه لم يبق

أمامها الآن سوى أن تغادر مغمغمة : ثمة سرّ غامض في الأمر ، فليس هناك من يقتحم بيتاً لأجل تناول الفطور فقط . وعلى كل حال ، فإن الإقرار الرسمي للمدير ، المقدم خطياً ، بأنه لم يُفقد أي شيء ذا قيمة أو دون قيمة من المدرسة ، جعل رجال الشرطة يقررون عدم رفع آثار البصمات ، مثلما يستدعي الروتين ، لدينا فائض من العمل ، قال ذلك آمر جماعة المحققين . ولكن هذه الكلمات المطمئنة لم تتح لدون جوزيه النوم خلال ما تبقى من الليل ، فقد خاف أن يتكرر الحلم نفسه وترجع الشرطة ومعها العدسات المكبرة ومساحيق البودرة .

لا يوجد في البيت شيء يوقف هذه الحمى ، والطبيب لا يأتي إلا في المساء ، ومن المحتمل ألا يأتي اليوم ، وهو لن يجلب معه أدوية ، بل سيقتصر على كتابة الوصفة المعهودة لحالات الرشح والانفلونزا . الملابس المتسخة ما تزال مكومة وسط البيت ، ودون جوزيه ينظر إليها من السرير نظرة حائرة ، كما لو أن تلك الأشياء ليست له ، وقدر يسير من الحس السليم هو الذي يمنعه من التساؤل ، من الذي جاء ليتعرى هنا ، وكان ذلك الحس السليم هو الذي دفعه ، أخيراً ، إلى التفكير في التعقيدات ، سواء ذات الطبيعة الشخصية أو المهنية ، التي ستنشأ عن دخول أحد زملائه متجاوزاً الباب ليستعلم عن حالته ، مرسلاً من قبل الرئيس أو بمبادرة ذاتية ، ولقائه مواجهة مع تلك القذارة . عندما نهض واقفاً أحس كما لو أنهم قد دفعوه بفظاظة نحو أعلى السلم ، ولكن هذا الدوار لم يكن كغيره ، فهو ناجم عن الحمى ، وعن الضعف الذي يعتريه إلى حد ما ، لأن ما كان يأكله في المدرسة ، ويبدو له كافياً في كل مرة ، كان ينفع لخداع أعصابه أكثر من نفعه لتغذية جسده . وبصعوبة ، مستنداً إلى الجدار ، تمكن من الوصول إلى كرسي والجلوس عليه . انتظر أن يعود رأسه إلى حالته العادية لكي يفكر في المكان الملائم لإخفاء الملابس المتسخة ، في غرفة الحمام لا ، فالأطباء يغسلون أيديهم لدى الخروج ،

وتحت السرير مستحيل ،فهو من تلك الهياكل القديمة ذات القوائم العالية ، ويمكن لأي شخص ، حتى دون أن ينحني ، أن يرى تلك الأسمال ، وفي خزانة الشخصيات المشهورة لا يوجد متسع وهي ليست بالمكان المناسب ، الحقيقة الحزينة هي أن رأس دون جوزيه ما زال يعمل بصورة سيئة على الرغم من توقفه عن الدوران ، المكان الوحيد الذي ستكون فيه الملابس المتسخة بمنجى من الفضول دون ريب هو المكان الذي توضع فيه عندما تكون نظيفة ، أي وراء الستارة التي تغطي الركن الذي يستخدم كخزانة للملابس ، وسيكون الزميل الزائر أو الطبيب في منتهى الوقاحة إذا ما دس أنفه هناك . أحس بالرضى عن نفسه لأنه أنجز ،بعد تأخير مبالغ فيه ،ما كان يُعتبر في ظروف أخرى أمراً جلياً ، دفع دون جوزيه الملابس بقدمه نحو الستارة كي لا يلوث بيجامته .بقيت على الأرضية بقعة كبيرة من الرطوبة تحتاج إلى ساعات ريثما تتبخر بالكامل ، إذا ما دخل أحدهم قبل ذلك وسأله فسوف يوضح له بأن ماء قد اندلق منه في لحظة سهو أو أنه كانت هناك بقعة على الأرض وحاول تنظيفها .كانت معدة دون جوزيه ، منذ أن استيقظ ، تتضرع إليه بأن يحنو عليها بفنجان من القهوة مع الحليب ، بقطعة بسكويت ، بشريحة خبز مع الزبد ، بأي شيء يخمد الشهية التي تيقظت فجأة ، الآن بعد أن انزاح القلق على المصير العاجل للملابس . كان الخبز قاسياً وناشفاً ، والزبد ضئيلاً ،ولم يكن هناك حليب ، وإنما قهوة فقط ، ومن نوعية رديئة ، ومن المعروف أن رجلاً لم تشأ امرأة القبول بالعيش في كوخه هذا ، رجلاً من هؤلاء ، ما عدا استثناءات قليلة جداً لا مكان لها في هذه القصة ، لن يتجاوز قط كونه مجرد شيطان بائس ، ومن المثير للفضول أن يقال دوماً إنه شيطان بائس ولا يقال أبداً إنه إله بائس ، خصوصاً عندما يكون قد أصابه سوء الطالع بالخروج مُفسَد الهندام مثل رجلنا هذا ، وحذار ، لأن من كنا نتكلم عنه هو إنسان ، وليس مجرد إله لا على التعيين . على الرغم من الطعام

القليل الذي يبعث على الكآبة ، فقد وجد دون جوزيه من الحماس ما يكفي ليحلق ذقنه ، وهي عملية بدا له أنه خرج منها بوجه أحسن حالاً، إلى حد أنه قال أخيراً للمرآة ، يبدو أن الحمى قد تراجعت ، وقاده هذا الاعتقاد إلى التفكير في أن ذهابه للمثول في موقع العمل بإرادته لن يكون بالسياسة السيئة ، وستكون كلماته التي سيقولها ، خدمة المحفوظات هي فوق كل شيء ، وسيغفر له المدير ، نظراً لشدة البرد في الخارج ، عدم قيامه بتلك الالتفافة حول المبنى المفروضة عليه للدخول ، بل ربما يسجل في ملف دون جوزيه أن مجيئه هو دليل واضح على روح التعاون والمواظبة على العمل . فكر في ذلك ولكنه لم ينفذه . كان يشعر بالألم في كل أنحاء جسمه ، كما لو أنهم قد سحلوه ، ضربوه ، زعزعوه ، فقد كانت عضلاته تؤلمه ، وكانت تؤلمه مفاصله ، ولم يكن ذلك بسبب الجهود الشاقة التي بذلها كمتسلق ومحطم أبواب ، فأي شخص يمكنه أن يدرك بأن الأمر يتعلق بآلام مختلفة ، واختتم تفكيره ، ما أعاني منه هو الانفلونزا .

كان قد اندس في الفراش للتو عندما سمع طرقاً على باب الاتصال بالمحفوظات ، لا بد أنه زميل مشفق عليه يأخذ على محمل الجد الوصية المسيحية بزيارة المرضى والمسجونين ، لا ، لا يمكن للقادم أن يكون زميلاً ، فاستراحة الغداء ما تزال بعيدة ، وممارسة أعمال التراحم غير مسموح بها إلا خارج أوقات الخدمة ، ادخل ، الباب غير موصد بالمفتاح ، فُتح الباب وظهر عند العتبة نائب المدير الذي كان قد أبلغ المديرَ عن مرضه ، يريد الرئيس أن يعرف إذا ما كنتَ تتناول دواءً ما ريثما يحضر الطبيب ، لا يا سيدي ، ليس لدي شيء مناسب في البيت ، إليكَ بعض أقراص الدواء إذن ، شكراً جزيلاً ، وإذا كنتَ لا تمانع فسوف أدفع لك ثمن الدواء لاحقاً ، لأنني لا أستطيع النهوض ، بكم أنا مدين لكَ ، لقد كان أمراً أصدره لي الرئيس ، ولا يمكن لأحد أن يسأل الرئيس بكم هو

مدين له ، أعرفُ ذلك ، اعذرني ، سيكون من المناسب أن تتناول قرصاً الآن ، ثم دخل نائب المدير دون أن يطلب إذناً بذلك ، أجل ،شكراً جزيلاً ، هذا لطف كبير منه ، ولم يستطع دون جوزيه أن يعترض طريقه ، أن يقول له توقف ، لا يمكن لحضرتك الدخول إلى هنا ، فهذا منزل خاص ، لم يستطع قول ذلك لأنه لا يمكن في المقام الأول التحدث بمثل هذه الألفاظ إلى مسؤول ، ولأنه في المقام الثاني ،ليس هناك في ذاكرة التقاليد الشفوية ، ولا في السجلات الخطية لحوليات المحفوظات ، ما يشير إلى أن رئيساً قد اهتم يوماً بصحة أحد الكتبة إلى حد إرسال مندوب يحمل إليه أقراص دواء . وكان نائب المدير نفسه مرتبكاً من هذا الوضع المستجد ،فهو لم يفعل مثل ذلك بمبادرته الشخصية قط ، ولكنه لم يفقد بوصلته على أي حال ، وكمن يعرف تماماً ما الذي جاء يفعله ويعرف كل أرجاء البيت ، وليس هذا بغريب ، فقبل التغيرات العمرانية في الحي ، كان يسكن بيتاً مثل هذا البيت . وكان أول ما لاحظه هو بقعة الرطوبة الكبيرة على الأرض ، فسأل ، ما هذا ، أهو تسرب ماء ، وكان دون جوزيه يرغب في أن يرد عليه بنعم حتى لا يضطر إلى تقديم تفسيرات أخرى ، ولكنه آثر أن ينسب تلك البقعة إلى إهماله ، مثلما فكر من قبل ، فلم يعد ينقصه إلا أن يجيء بسباك إلى البيت ليقدم تقريراً إلى الرئيس بعد ذلك يعلن فيه بأنه لا علاقة للتمديدات الصحية ، بالرغم من قِدمها ،بظهور بقعة الرطوبة . كان نائب المدير قد جاء في أثناء ذلك حاملاً كأس الماء وقرص الدواء ، وكانت مهمة الممرض التي أنيطت به قد لطفت من ملامح التسلط المعهودة في وجهه ، ولكن تلك الملامح ما لبثت أن عادت إليه بغتة ،وقد زاد من حدتها أمر يمكن تصنيفه بأنه إهانة مفاجئة ، وذلك عندما اكتشف ، حين اقترب من السرير ، وجود البطاقات المدرسية للطفلة المجهولة موضوعة فوق الكوميدينو .وقد انتبه دون جوزيه إلى استغراب الآخر في اللحظة التي بدأ يتشكل فيها ذلك

الاستغراب ، وأحس كما لو أن العالم كله ينهار . أصدر الدماغ على الفور أمراً لعضلات ذراع هذا الجانب ، ارفع هذه البطاقات من هنا يا غبي ، ولكن بعد ذلك ، وبالسرعة نفسها ، اندفعت شحنة كهربية في إثر شحنة كهربية ، وصححت الخطأ ، وهذا لمجرد أن نطلق على ما حدث تسمية ما ، مثل من تعرف للتو على غبائه ، أرجوك ، لا تلمسها ، تجاهل الأمر ، تجاهله . ولهذا ، اعتدل دون جوزيه في السرير بخفة غير متوقعة على الإطلاق من شخص يعاني خموداً جسدياً وذهنياً هو المحصلة الأولى المعروفة للانفلونزا ، متظاهراً بأنه يريد تسهيل مهمة نائب المدير الإحسانية ، ومدّ ذراعه ليتلقى قرص الدواء ، الذي وضعه في فمه ، والماء لكي يدفعه عبر حلقه المتضيق والمكروب ، منتهزاً في الوقت نفسه كون الفراش الذي يرقد فوقه على مستوى الكوميدينو ، ليغطي البطاقات بمرفق ذراعه الأخرى ، تاركاً ساعده يهوي بعد ذلك إلى الأمام وراحة يده مبسوطة ، زاجرة ، وكأنها تأمر نائب المدير توقف عندك . ما أنقذه هو الصورة الملصقة على البطاقة ، لأن هذا الاختلاف هو الأبرز بين الشهادات المدرسية وشهادات الميلاد والحياة في المحفوظات ، لأن ما تفتقر إليه المحفوظات العامة هو تلقي صورة شخصية للمسجلين الأحياء لديها في كل عام ، ومن يقول كل عام يقول كل شهر ، أو كل أسبوع ، أو كل يوم ، أو صورة في كل ساعة ، رباه ، كيف ينقضي الزمن ، ويا للعمل الذي سيتطلبه ذلك ، كم من الكتبة سيتوجب تجنيدهم ، صورة في كل دقيقة ، في كل ثانية ، يا لكمية الصمغ ، واستهلاك المقصات ، الحرص في اختيار العاملين ، بحيث يُستبعد الحالمون الذين لا يتورعون عن الاستغراق في تأمل صورة إلى الأبد ، ويسرح بهم الخيال كما يسرح خيال البلهاء وهم يرون مرور سحابة . أبدى وجه نائب المدير الملامح التي تظهر عليه في أسوأ أيامه ، عندما تتراكم الأوراق فوق كل الطاولات ويستدعيه الرئيس ليسأله إذا ما كان متأكداً حقاً من أنه ينجز واجبه . بفضل وجود الصورة ، لم يفكر في أن البطاقات التي على كوميدينو مرؤوسه هي من

بطاقات المحفوظات العامة ، ولكن التعجل الذي غطاها به دون جوزيه ، وخصوصاً أنه تصرف كما لو أنه يفعل ذلك دون قصد أو بشرود تفكير ، أوقظ في نفسه الشكوك ، كانت بقعة الرطوبة قد بعثت فيه الحيرة من قبل ، وها هي الآن بطاقات من نموذج غير معروف لديه عليها صورة ملصقة ، لطفلة ، مثلما بإمكانه أن يراها . لم يكن قادراً على تحديد عدد البطاقات الموضوعة بعضها فوق بعض ، ولكنها ،حسب ما يبدو من سماكتها ، يجب أن تكون عشراً على الأقل ، عشر بطاقات عليها صور فتيات ، يا له من أمر غريب ، ما الذي تفعله هذه البطاقات هنا ، فكر بذلك مذهولاً ، ولا بد أن ذهوله سيكون أكبر بكثير إذا ما عرف أن البطاقات كلها تعود إلى الشخص نفسه ، وأن البطاقتين الأخيرتين هما لفتاة في سن المراهقة ، ذات وجه جدي ولكنه لطيف . ترك نائب المدير علبة أقراص الدواء على الكوميدينو وانسحب . وعندما صار على وشك الخروج ، نظر إلى الوراء ورأى مرؤوسه ما يزال يغطي البطاقات بمرفقه، يجب أن أخبر الرئيس ، قال لنفسه . وما كاد الباب يُغلق حتى سارع دون جوزيه ، بحركة فظة ، كما لو أنه يخشى أن يُفاجأ وهو يرتكب خطيئة ، ودس البطاقات تحت الفراش . لم يكن هناك أحد ليقول له إن الوقت قد فات ، ولم يكن هو راغباً في أن يفكر في ذلك .

الكتاب القادم

كل الأسماء

رواية جوزيه ساراماغو

ترجمة صالح علماني

تقديم د. حامد أبو أحمد

الجزء الثانى والأخير

يوزع مجانا مع عدد

القاهرة

الذى يصدر فى منتصف مايو ٢٠٠٤

كل الأسماء

موظف مغمور فى الإدارة العامة للسجل المدنى يتسلل ليلا إلى مبناها ليسلى نفسه بقراءة ملفات الشخصيات اللامعة والشهيرة فى المجتمع والتغلغل على أسرارها الخاصة إلى أن يعثر على اسم امرأة مجهولة، تقوده قراءة ملفها إلى مغامرة مثيرة.

جوزيه ساراماجو

يعتبر الكاتب البرتغالى، جوزيه ساراماجو، من أشهر كتاب البرتغال. ولد ساراماجو عام ١٩٢٢ فى منطقة ازيناجا وسط البرتغال، لعائلة من فقراء المزارعين. بدأ حياته صانع أقفال ثم صحفيا ومترجما قبل أن يكرس وقته كله للأدب. أصدر روايته الأولى «أرض الخطيئة» عام ١٩٤٧، وتوقف عن الكتابة ما يقارب العشرين عاما، ليصدر عام ١٩٦٦ ديوانه الشعرى الأول «قصائد محتملة».



أصدر نحو عشرين كتابا ويعتبره النقاد واحدا من أهم الكتاب فى البرتغال بفضل رواياته المتعددة الأصوات، والتى تستعيد التاريخ البرتغالى بتهكم دقيق قريب من الأسلوب الذى اعتمده «بودلير». ساراماجو عضو فى الحزب الشيوعى البرتغالى منذ عام ١٩٤٩. ويعيش حاليا فى جزر الكنارى.

من أشهر رواياته «وجيز الرسم والخط» ١٩٧٦، «ليفنتادو دوتشادرا» ١٩٨٠، «الإله الأكتع» ١٩٨٢، «عام موت ريكاردو ريس» ١٩٨٤، «الطوف البحرى» ١٩٨٦، «قصة حصار لشبونة» ١٩٨٩، «الانجيل بحسب يسوع المسيح» ١٩٩٢، «العمى» ١٩٩٥. حصل ساراماجو على جائزة نادى القلم الدولى عام ١٩٨٢، وعلى جائزة كاموس البرتغالية عام ١٩٩٥. وفى أكتوبر ١٩٩٨ [illegible] جائزة نوبل للآداب.

الكتاب للجميع

سلسلة كتب شهرية، تتيح للقارئ تكوين مكتبة ذات مساحة منفتحة على [illegible] بكلفة لا تثقل عليه. كل الأطراف المشاركة فى هذا المشروع تتنازل عن حقوق[illegible] السلسلة توزع مجانا مع ثمانى صحف عربية هى:

القاهرة مصر الأيام البحرين البيان الإ[illegible]
القبس الكويت الحياة السعودية السفير [illegible]
الثورة سورية